الأزهر

أبرياء ويتهمون

تأليف
الأستاذ الدكتور
محمد رجب البيومى

الجزء الثانى

هدية مجلة الأزهر المجانية لشهر ذى القعدة ١٤٢٦هـ

الأزهر

صفحات من التاريخ

أبرياء ومتهمون

تأليف

الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

دعبل الخزاعي
شاعر ثائر ذو رأي

نأسف كثيرا حين نجد بعض الشخصيات الأدبية والسياسية قد وضعت فى غير موضعها الصحيح. فنقل عنها من الأخبار والحوادث، ما فسر على غير وجهه، ثم انطبع هذا التفسير الزائف فى عقول الباحثين، فهم يتناقلونه فى كتبهم المتتابعة كأنه حق صريح لا وجه لنقضه وتفنيده. وقد يكون الشاعر الثائر دعبل الخزاعى أحد هؤلاء الذين ظهرت صورهم التاريخية فى لوحات مشوهة، فليس بها من الملامح والسمات ما يوقف القارىء على الحقيقة الصادقة، وقد أجمع الإخباريون من الرواة والأدباء من النقد على ترديد ما اشتهر عن الرجل من أنباء، دون أن يخضعوا أخباره المتواترة إلى نظر صائب يستشف الخوالج الكامنة، ويفسر المتناقضات المضطربة، وإنما قصارى الاخباريين من الرواة أن يجمعوا على تأييد ما حكاه أبوالفرج الأصبهانى حين قال عن دعبل «هو دعبل بن على بن رزين ويكنى أبا على شاعر متقدم مطبوع، هجاء خبيث اللسان لم يسلم منه أحد من الخلفاء ولا من وزرائهم ولا أولادهم ولا ذو نباهة أحسن إليه أم لم يحسن ولا أفلت منه كبير أحد» ثم يسهب صاحب الأغانى فى ذكر أنباء مختلفة يتأملها من زاوية واحدة دون أن يعمق نظرته الناقدة، فيما تحمل من دلائل وإيحاءات، وإذا كان أبوالفرج راوية

إخباريا يسطر ما يسمع دون أن يتسع له المجال في أكثر أخباره للترجيح والتحليل، فإن أبا العلاء المعرى الناقد الألمعى ينهج نهجه فيما تحدث به عن الشاعر، وكنا نأمل أن نجد عند الفيلسوف المتعمق ما افتقدناه في أسف وألم عند الأصبهانى، ولكننا وجدنا أبوالعلاء يجرى معه في مضمار واحد، حين يتحدث عن دعبل في رده على ابن القارح فيقول:

«وما يلحقنى الشك فى أن دعبل بن على، لم يكن له دين، وكان يتظاهر بالتشيع وإنما غرضه التكسب، . وما أرتاب في أن دعبلا كان على رأى الحكمى وطبقته، والزندقة فيهم فاشية، ومن ديارهم ناشبة» وإذن فقد أربى المعرى على أبي الفرج فجعل الرجل زنديقا متهما في دينه.. ودعبل أمام هذه الاتهامات القاسية في حاجة ماسة إلي من يجلو الضباب عن سيرته ليراه القارىء في وضعه الصحيح.

ويمكننا أن نلخص الاتهامات التي وجهها الكاتبون إلى دعبل في ثلاث نقائص تشينه وترديه، فهو أولاً هجاء خبيث اللسان لم يسلم منه أحد، أحسن إليه أم لم يحسن، وهو ثانيا منافق كذاب يظهر التشيع طعماً في الكسب، ويخفى غير ما يعلن، وهو ثالثا كما قال أبوالفرج مغامر فاتك عاش عيشة مريبة متهمة فعاشر اللصوص والأشرار، وخالط الشطار

والعيارين ممن جمعوا العصابات وشنوا الغارات، وهى ثالثة الأثافى كما يقولون، ولابد لنا أن نكشف اللثام عن سيرة الرجل، لنرى أكانت هذه الاتهامات الثلاثة حقا لاشبهة فيه أم أنها استنتاج مجحف، أخطأه الصواب واحتاج إلى من يعمد إليه بالتصحيح.

حقا لقد كان الرجل هجاء قاسي اللسان. ولكن أى هجاء كان يقوله دعبل؟ أهو الهجاء الشخصى الذى يتجه إلى الأفراد فيسلبهم محاسنهم بالباطل الزائف طمعاً فى مالهم أو عقاباً على شحهم، أم هو هجاء صاحب الرأى الذى ينظر فيجد الأمر قد وسد إلى غير أصحابه، ويرى المهيمنين من الرؤساء قد أساءوا سيرتهم فى الناس فهم ظلمة فساق، يقولون مالا يعملون، وفيهم تصادر الأموال بغير حق، وتزهق الأرواح دون موجب، وطوائف المتملقين من الشعراء والكتاب يطيلون مدائحهم الكاذبة، ويختلقون لهم من المكارم المزورة مالم يهموا به فضلاً عن أن يفعلوه. لقد كان دعبل، يرجو من بنى العباس ألا يكونوا أشراراً ظلمة كبنى أمية، فهم أقرب بنى أمية، واستئصال باطلهم إلا طعما أكيدا فى حق يمحق الباطل، وعدل يسحق الظلم، ولكن المسرح السياسى لعهده قد اختلف ممثلوه فقط، فراح فريق وجاء فريق.. أما الرواية

نفسها فمأساة حزينة تصور أبشع مناظر الإرهاب والتنكيل، والشاعر كحرٍ ثائر لا يرضى أن يسير فى ركاب الوصوليين من الشعراء، والهتافين من الأدعياء، ولكنه يجهر بعداوته لذوى الظلم من خلفاء ووزراء، ويصرح بخيبة أمله فى العباسيين إذ يقول فى أسف ومرارة:

أرى أمية معذورين إن غدروا
ولا أرى لبنى العباس من عذر
قتل وأسر وتحريق ومنهبة
فعل الغزاة بأرض الروم والخزر

فهجاء دعبل عنصر هام من عناصر الشعر السياسى، وهو بما تضمنه من نقد وتشهير يصور أحزاب المعارضة، ويهدف هدفها السياسى فى الكشف عن مثالب الحاكمين، وإعلان ما يقترفون من منكرات، ونحن نعد الهجاء رذيلة دنيئة إذا كان صاحبه ذا مأرب شخصى كالحطيئة فهو يهجو الأثرياء إذا منعوه، ويمدح الأدنياء إن أعطوه. أما إن كان الهجاء تصويرا لنقائص أليمة يتركبها الرؤساء فهو ناقوس مجلجل يرن فى الآذان الغافلة، ويفتح فى العيون النائمة فترى ما يرتكب حولها من أهوال، وليت شعرى أيهما أعظم فى ميزان الرجولة، شاعر كالبحترى يمدح الظلمة من الرؤساء فيحيل

ظلامهم الدامس إلى صباح وضيء مجانبا باب الحق وطريق الإنصاف، حتى يملأ يده من دنانيرهم الخادعة، وضياعهم الواسعة، ثم لايمنعه تكسبه المهين أن يهجو في الغد من مدحه بالأمس زلفى لرئيس جديد يحمل الضغينة على سابقه فإذا دالت دولة هذا الجديد وحل سواه طفق البحترى يكيل السباب لمن تقرب إليه في عنفوان مجده ويربى المديح لمن جافاه وعاداه؟

أيهما أعظم فى ميزان الرجولة هذا المتكسب الخانع أم ذاك الأبى الثائر الذى يوجه هجومه القارص إلى من يتعبدون الناس بطغيانهم الأثيم؟ إن دعبلا الشجاع لم يكتف بالهجاء الشعرى بل أبى عليه إباؤه أن يقف عند القول فاندفع إلى العمل مع الثائرين، وأعلن الحرب على الأمين ورأى فى سلوكه الشخصى، وضعفه الخلقى ما لايرشحه لإمارة المؤمنين عن جدارة واستحقاق! وكأنى به وقد استشرف إلى عهد زاهر تصفو سماؤه فى خلافة المأمون فألب الجموع وقاد العصائب. ثم نظر متلددا فوجد الخليفة الجديد يصب سياطه الظالمة على أناس أبرياء متخذا من فتنة خلق القرآن سلاحا يطعن به الآمنين، ففى كل يوم نفوس تزهق، وسياط تحرق وجسوم تقيد وتسجن! أين الفجر الوضيء الذى استشرف له الشاعر

وسعى إلى بزوغه سعى المقاتل الجرىء؟ لقد تبددت أوهامه الحلوة، واستشعر ندما مغيظا يدفعه إلى أن يهدد المأمون فيقول:

أيسومنى المأمون خطة عاجز
أو ما رأى بالأمس رأس محمد
إنى من القوم الذين سيوفهم
قتلت أخاك وشرفتك بمقعد
رفعوا محلك بعد طول خموله
واستنقذوك من الحضيض الأوهد

وكان المأمون على ضيقة بقوارص الشاعر يصفح عنه ويفسح له فى مجلسه حتى روى الرواة أنه كان أول داخل من الشعراء عليه وآخر خارج من عنده، ولو بلغ هذه المرتبة شاعر وصولى متكسب لأرسل مدائحه العريضة فى الخليفة، وجعل أدبه مطية تسير به إلى المال والضياع، ولكن دعبلا الأبى يستشعر غصة أليمة حين يجد آماله تخيب فى إنصاف المأمون، فيضحى غير مكترث بمكانته لديه، ويرسل إليه أهاجيه القارصة، هاربا بنفسه فى مخارم الجبال وشعاب الفلوات، متحملا مرارة التشرد وشظف الصحراء، وقلق الاغتراب، وحسبه أن أراح نفسه، فعبر عن مشاعره الساخطة

دون أن يغره سلطان المال أو يجتذبه مجلس الخلافة، ولتأت الأيام إليه بما تدخر من الأهوال فلن يهتم بعد بعقاب أو إرهاب.. إن رجلا يحتقر رغائب البشر في سبيل مبدئه لجدير أن يأخذ اعتباره الصحيح دون تحيف وانتقاص.

ثم ماذا.. لقد ظل المنافقون من الرواة يعيبون دعبلا بأهاجية السياسية ويعدونها ثمرة مريرة لفساد الطوية وخبث الضمير، وظل الشاعر وفيا لمبدئه الصريح، فقد مات المأمون وجاء المعتصم ليسلك سبيله في الإرهاب والتعذيب ولم يكن له من الحلم والصفح ما يسع زلات الشاعر وأهاجيه كما وسعها صدر المأمون فأخذ يطارده ويبعث خلفه الأرصاد وينصب الفخاخ لاغتياله، والشاعر الحذر ينتقل من كهف إلى كهف ومن قرية إلى قرية ثم لاينقطع عن التنديد بدوى الأمر، فقد طغى الأتراك أرهب طغيان، وأعطى المعتصم قياد الدولة لوصيف وأشناس وغيرهما من فسدة الترك فطمى السيل وعج الفساد، ودعبل يسجل ذلك فيقول في استفظاع:

وقالوا إمام لم يكن ذا هداية
فليس له دين وليس له رب
وما كانت الأنباء تأتى بمثله
يملك يوما أو تدين له العرب

لقد ضاع ملك الناس إذ ساس أمرهم

وصيف وأشناس وقد عظم الكرب

وكأن القدر قد هادن الشاعر الثأر فمات المعتصم دون أن يتمكن منه، واندفع المتملقون من أصحاب القصائد يرثون الخليفة الراحل، ويستقبلون العاهل الجديد بمدائحهم الطنانة، وقد بذل كل شاعر فى اختلاق الفضائل، وتزييف الحقائق، وزركشة البيان، ولكن جميع ما سجلوه قد صادف أذنا صماء من الناس، فقبع فى أوراق الدواوين مجفوا لاتهش له نفس، ولا يلهج به لسان. أما الكثرة الكاثرة من الناس فقد اندفعوا يرددون قول دعبل فى تقدير وإعجاب:

الحمد الله لاصبر ولا جلد

ولا عزاء إذا أهل البلى رقدوا

خليفة مات لم يحزن له أحد

وآخر قام لم يفرح له أحد

ويالهما من بيتين صادقين أظهرا الحقيقة الأصيلة دون خداع!! فأحس كل عربى أنهما يعبران عن ذات نفسه، فرواهما السامعون، وأصبحا مضرب المثل فى كل مناسبة تتاح والمؤسف حقا أن هذا الشعر الرائع الذى تردد على

الأفواه سرا في المجالس ،تهاداه السامرون خلسة في الأندية ، لم يجد من جامعي الشعر من يحرص على رصده وتسجيله ، إذ أن كل راوية أديب قد خاف على نفسه أن يسجل في طيات كتبه بعض ما قيل في ذوى الأمر ، فيعرض مستقبله لخطر محقق ، وبذلك ضاع ديوان الرجل المنكود فلم يحفل بروايته باحث ، أو يجمع شوارده جامع ، وما وجد لدينا من ذلك قليل من كثير ظل يتردد على الأفواه حقبا طويلة حتى أمن المؤرخون على أنفسهم بعد انقراض من قيل في هجائهم ، فسجلوه وحفظوه ، وقد كان الشاعر يقول ما مؤداه : «لقد مضى عليَّ ستون عاما ما تصرم منها يوم إلا وقلت فيه الشعر» (الأغانى) ومعنى ذلك أن ما قاله كثير حفيل ، وقد يكون الرجل مبالغاً في دعواه ولكن ذلك يدل على أنه نظم قدراً حافلا لايقل عما نظمه معاصروه كأبي تمام والبحترى وابن الرومي وسواهم من فطاحل الشعراء ولكن مسلكه العدائي قد جعل الأدباء يتحاشون شعره ! فطوى الزمن منه أضعاف أضعاف ما ترك ، واشتهر عنه أنه هجاء خبيث اللسان ، وما هجاؤه إلا لون سياسى لايصح أن يندرج تحت القدح المذموم ، إذ أنه هجاء المبادىء لا الأشخاص ، ويخيل إلينا أن أبواب الشعر العربى فى حاجة ماسة إلى تحديد دقيق .

بحيث لاتفرج دائرة الهجاء حتى تسع كل ذم، صائبا كان أو غير صائب، متى تم هذا التحديد المرتقب، فإننا نعتبر قصائد دعبل مشاركة سياسية تصور وجهات نظر كثيرة، ترجم عنها الشاعر فصدق وأجاد، ومن ثم فقد كان ثائرا ذا رسالة وهدف!!

وقل من الشعراء -على عهده- مَنْ حمل الراية، وحارب الطغاة.

ننتقل بعد ذلك إلى المأخذ الثاني، وقد حصره أبوالعلاء فى زندقة الشاعر مع جنوحه إلى التشيع رغبة فى المكسب المادى، أولا بأننا لم نجد فيما لدينا من أخبار دعبل ما يشير إلى زندقته وإلحاده، وقد اهتم أعداؤه بتعداد مثالبه، وتشريح نقائصه، فلو عرف عنه شيء مما أشار إليه المعرى لما نكص هؤلاء عن تسجيله وإيراد شواهده، وتعداد أسبابه ونتائجه! وواضح أن تشيعه يمنع زندقته! لأن الذى يؤمن بأحقية آل محمد فى الخلافة، لابد مؤمن بمحمد وربه، وما رأينا فى تاريخ الإلحاد زنديقا يتشيع، حتى نجرؤ على رمى دعبل بالزندقة! وأعجب ما قرأناه للمعرى دعواه أن تشيع دعبل للكسب لاللعقيدة إذ أن الشاعر لو أراد الكسب لاتجه بمدائحه إلى أصحاب المال والسلطان من الخلفاء والوزراء! ولكنه هاجم

هؤلاء جميعا ، واتجه بأمداحه إلى فئة مستضعفة لاتملك القليل أو الكثير ! ! فكيف يكون تشيعه إذن للكسب والثراء !

لقد كان الشاعر العباسي من طبقة دعبل يمدح الرشيد أو المأمون أو المعتصم فيغنم عن القصيدة الواحدة ضيعة واسعة ، وقد يأخذ من الجوارى والقصور والبدر ما ينقله من طبقة الرعاع إلى مستوى العلية من المترفين ، ولكننا لم نجد شاعرا علويا غنم فى العصر العباسي من تشيعه ما يكفل له الراحة والرغد ، ومن أين يأتيه الثراء ، وأولياؤه فقراء تنفحهم هبات الخلافة بما لايتسع لغير الضرورة من المتاع ، وتجحف بهم كثيرا فلا يجدون ما يبتغون فكيف يتجه مريد الكسب المادى إلى مدائحهم السياسية ، وهو يرى الأموال تتدفق فى قصر الخلافة فتغرق بطوفانها من يريد .

حقا إن رأى المعرى فى تشيع دعبل الكسبى لايجد شبهة ضئيلة توحى بتأييده ، بل تقوم كل الدلائل على توعيته وتفنيده ، وقد قرأنا فى تاريخ الشاعر أن الإمام موسى الرضا أعطاه هبة مرضية عن قصيدته التائية فى أهل البيت ، إذ بكى موسى حين سمعها أحر البكاء .

ولكن سلطان الإمام الرضا لم يدم غير أمد محدود ، فقد رضى عنه المأمون برهة يسيرة فأغرقه بنعمه ، ثم عوجلت حياته فجأة على نحو مجهول دون أن ينعم على أحد غير ما

جاء به مرة واحدة على دعبل. فهل كان الشاعر حين نظم القصيدة يعلم -مقدما- أنه سيكافأ عليها، حتى يقال إنه سعى بتشيعه إلى الكسب. إن الرواة ليذكرون أن دعبلا قد ألح على موسى الرضا أن يأخذ خلعة من ثوبه لتكون معه في قبره. وهذا الإلحاح المتهالك يدل على إخلاص الشاعر، ويكشف عن صدق تشيعه بما لايحتمل أدنى التباس، وقد كان الشاعر جريئا في قصيدته، فلم يكتف كالمعتاد بالتوجع لأهل البيت، فيذكر مصارع شهدائهم ومصائب أوليائهم، بل دعا إلى إمامتهم وتمنى أن يجيء اليوم الذى ينقرض فيه حكم بني العباس ليرجع الأمر إلى ذويه، أى جرأة تلك التى لاتمنع الشاعر من الاحتياط لنفسه بل تدفعه لأن يقول :

مدارس آيات خلت من تلاوة
ومنزل وحى مقفر العرصات
لآل رسول الله بالخيف من منى
وبالركن والتعريف والجمرات
قفا نسأل الدار التى شط أهلها
متى عهدها بالصوم والصلوات
وأين الألى شطت بهم غربة النوى
أفانين فى الآفاق مفترقات

مـــــلامك فـى آل الـنـبى فــــإنـهم
أحــبــاى مــا عــاشــوا وأهل ثـقــاتى
بنفــسى أنتم من كـهــول وفــتــيـــة
لــفك عـنـاه أو لـحـــــــــمـل ديــات
أحب قــصـى الرحم من أجل حــبكم
وأهـجــر فــيكم أســرتى وبـنـاتـى
لـقــد حــفت الأيام حــولى بشــرها
وإنـى لأرجـــو الأمن بعـــد وفـــاتى
ألـم تـر أنـى من ثـلاثـين حـــجـــــة
أروح وأغــــدو دائم الحـــســـرات
أرى فــيـئـهـم فى غـيـرهم منقـسـمـا
وأيديهم من فـــيـــئـــهم صــفــرات

إلى أن يقول :

فلولا الذى أرجـوه فى الـيــوم أو غـد
تـقطـع قلبى إثـرهـم حـــســـــرات
خـــروج إمـــام لا مـــحــــالة خـــارج
يـقــوم على اسم الله والبـــركـــات

يمـــيـــز فـــينا كل حق وباطل
ويجـزى على النعـمـاء والنقـمـات
فـإن قـرب الرحـمن من تلك مـدتى
وأخـــر من عــمــرى لطول حــيــاتى
شـــفـــيت ولـم أترك لنفـــسى وزيـة
ورويت منهم مـــفـــصلى وقناتى
قـصـاراى منهم أن أمـوت بـغـصـة
تردد بين الصـــدر والصـــهـــوات
كـأنى بالأضـلاع قـد ضـاق رحـبـهـا
لما ضـــمـنت من شـــدة الزفـــرات

إن التـشـيـع الذى يدفع صـاحبـه إلى الحتوف فـيظل تائـهـا شـريدا فى الفلوات وتخف الأيام بشـرها من حوله كمـا يقول فـلا يرجـو الأمن إلا بعـد الوفـاة.. هذا التـشـيـع القلق المرهق لايؤدى إلى كسب وجاه، بل إلى اضطهـاد وإزعـاج.. على أن الشـاعـر كان يأنف من الاتصـال بالخلفـاء، وقد حاول إبراهيم ابن المدبر أن يصلح أمره مع الخلافة فاعتذر الشاعر وامتنع، وسلك سبيـلا جلبت عليـه الشـرور حتى مات قتيـلا فى قـرية من قرى فارس فأراح واستراح.

ونخرج من جميع ذلك بنتيجة واضحة : هى أن دعوى أبى العلاء وأمثاله فى كذب تشيعه لا تجد ما يمدها بالتأييد ، وإذا عرفنا أن الشاعر قد نشأ بالكوفة وهى على عهده وكر التشيع ومجمع آل على ، وفيها من الخطباء والرواة والفقهاء والشعراء من يضرمون الأحاسيس بالوقود فتشب ثائرة هائجة تتجه بهواها العنيف إلى آل البيت من أسرة على فإننا بعد استقصاء تاريخ الشاعر نرى أن مسلكه الشيعى فى حياته نتيجة طبيعية لمنشئه فى بيئة ثائرة ، ولو لم يتشيع تشيعة المشتهر لوجب علينا أن نسأل فى حيرة. لم لم تثمر البيئة ثمرها الطبيعى فى نفس هذا الألمعى المتفتح ولكنه بتاريخه المضطرب كان منطقيا مع ظروفه وملابساته فكفانا مؤونة السؤال .

وننتقل -بعد هذين- إلى الاتهام الثالث وهو اشتراك دعبل مع الأشرار وقطاع الطريق ومخالطة الشطار والعيارين : وهو اتهام شائن إن فهم مدلول اللصوصية وقطع الطريق كما نفهمه فى العصر الحديث ، ولكننا نجد هؤلاء الشطار فى العصر العباسى لم يكونوا جميعاً من ذوى السفك التخريبى ، والسطو الاغتيالى لجمع المال وتكديس الذخائر ، فأكثر هؤلاء كما ذكر المؤرخون قوم رأوا آراء فى السياسة والمال تخالف ما

عليه النظام العباسى من تحكم فى الرقاب، واصطفاء للأفراد، وتسليط للقلة القليلة من أبناء الأعيان على الكثرة الكاثرة من همل الرعية وسوام الناس، وقد جهروا بآرائهم العادلة فأخذهم الإرهاب من كل مكان، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ففروا إلى الجبال والفلوات ينشدون الأمن ويلتمسون بعض الهدوء، وكان سلوكهم مع المارة عجبا أى عجب! فإذا وجدوا فقيرا لاتفى أمواله بغير حاجته تركوه وشأنه، وإذا وجدوا غنيا يجمع البدر الطائلة ويغرق فى ذهبه ورياشه جردوه من أكثر نفائسه وتركوا له ما يعين على السفر والحياة! وقوم هذا صنيعهم الاشتراكى من الناس لايمكن أن يقاسوا بسفلة الأشرار، وطغمة اللصوص وإذا كان لابد من الاعتراض على مسلكهم الإرهابى فهو اعتراض المشفق الرحيم لامؤاخذة القاهر اللجوج إنك لتقرأ نوادر هؤلاء فتجد من الطرائف ما يبهرك ويروعك، فهذا ابن الاثير فى جـ ٩ صـ ١١٥ والقاضى التنوخى فى الفرج بعد الشدة جـ ٢ صـ ١٠٨ يرويان أن أعمال هؤلاء كانت موجهة إلى أصحاب المال والأغنياء ممن يكدسون ثرواتهم ويخزنون أموالهم ويتركون العامة فى عوز وفاقة لذلك لم يتعرضوا لأصحاب البضائع القليلة، ولم يعرضوا لامرأة ولا لمن يستسلم إليهم!!

وكان لهؤلاء فلسفة فى التعليل والاستنتاج لاتخلو من طرافة وإبداع، فقد ذكر التوخى فى -الفرج بعد الشدة- بعض ملحهم النادرة فكان مما قال على لسان بعض الأدباء: «كنت مسافرا ببعض الجبال فخرج علينا ابن سيار الكردى، فقطع الطريق، وكان بزى الأمراء، فقربت منه أنظر إليه وأسمع كلامه، فوجدته يروى الشعر ويفهم النحو، فطمعت فيه، وعملت قصيدة مدحته بها، فقال: لست أعلم أن هذا من شعرك، ولكن أعمل لى على قافية هذا البيت ووزنه وأنشدنى بيتاً، فصغت ثلاثة أبيات إجازة له فقال لى: أى شيء أخذ منك لأرده عليك، فذكرت ما أخذ منى فرده إلى، ثم أخذ من أكياس التجار التى نهبها كيسا فيه ألف درهم فوهبه لى، فجزيته خيراً، ورددته إليه، فقال لم لاتأخذه؟

فوريت فى كلامى فقال: أحب أن تصدقنى الحديث، فقلت: وأنا آمن؟ فقال: نعم. قلت: لأنك لاتملكه وهو من أموال الناس أخذته منهم الساعة ظلما، فكيف يحل أخذه؟ فقال لى: أما قرأت ما ذكر الجاحظ فى كتاب اللصوص عن بعضهم؟ قال: إن هؤلاء التجار لم تسقط عنهم زكاة الناس لأنهم منعوها، فصارت أموالهم بذلك مستهلكة، واللصوص فقراء إليها، فإن أخذوا أموالهم

كان ذلك مباحا ، لأن عين المال مستهلكة بالزكاة».

هذه طرفة من طرفهم الغريبة نذكرها لا لنؤيد بها مسلك هؤلاء الشائرين، ولكن لنقف على وجهة نظرهم إلى أصحاب الأموال، فهم أصحاب فلسفة مريضة دون نزاع وإنما صورتهم التفكير المخطيء ما يجوز في صورة ما لايجوز فهم مجتهدون قد أخطأوا طريق الاجتهاد ولو نظرنا إليهم من هذه الزاوية لأعفيناهم من حرج كثير، ولك أن تقرأ معى القاضى التنوخي على لسان بعض هؤلاء: في كتاب الفرج بعد الشدة جـ ٢ صـ ٨ :

«قال اللص: لعن الله السلطان الذى أحوجنا إلى هذا، فإنه أسقط أرزاقنا فاحتجنا إلى هذا الفعل، وليس فيما نفعل ارتكاب أمر أعظم مما يرتكبه السلطان. أنت تعلم أن (ابن شيراز) في بغداد يصادر أموال الناس ويفقرهم حتى يأخذ الموسر الكثير فلا يخرج من حبسه، وهو يهتدى إلى شيء غير الصدقة، وكذلك يفعل (البريدى) في واسط والبصرة والديلم، ويتجاوز ذلك إلى الحرم والأولاد فاحسبونا مثل هؤلاء».

وبعد، فإذا كان دعبل قد هاجم الخلفاء والوزراء وضاقت عليه الحواجز فتنقل هاربا في القرى والأصقاع النازحة،

فماذاكان يصنع لاجتلاب الرزق ؟ أيصبر حتى يأكله الجوع أم ينضم إلى فريق من أمثاله ممن أرهقهم جور السلطان، وراعهم اغتصاب الأموال، وانتهاك الحرم، فاعتصموا بالكهوف والمخارم، واقتدوا بصاحب الأمر فى السطو والاغتصاب ! مع فارق بين الاثنين فأكثر هؤلاء اللصوص يأثمون ويندمون، ويقول قائلهم: «لعن الله السلطان الذى أحوجنا إلى هذا» أما رجال الدولة فيأثمون ويفتخرون ويتعدون الأموال إلى المحرمات من النساء ! ! ونحن لانبرر خطأ بخطأ ولكننا نزن الشى بالشىء ولا ننظر إليهما مفترقين لا يلتقيان.

على أن الطريف أن دعبلا نفسه وقع ذات مرة فى أيدى زملائه من الشطار فجردوه من ماله ومتاعه، ثم عرفوا شخصيته، وكانوا يروون أدبه، ويعتزون به فأكرموا مثواه، وخلعوا عليه أكثر ما فى حوزتهم من المتاع، وردوه إلى مأمنه غير خائف، والمقام لايتسع لبسط هذه الحادثة الطريفة، ولكننا نشير إليها فقط، لنعلم أن ذوى المآرب الباطشة لايسلم بعضهم من بعض، فهم فى صراع دائم بين الأصدقاء والأعداء، ويالها من حياة قاسية تكتنفها الأهوال.

لقد كان الشعر منطقيا مع نفسه حين هاجم خلفاء لا يقيمون شريعة الله بين الناس، وحين انضم هاربا إلى

عصابات تؤيد مذهبه، وترى ما ارتآه، فإذا اشتط في مسلكه الإرهابي فهو شطط المضطر الذى ضاقت حول عنقه حلقة الموت، فأفلت منها إلى حلقة أخرى تمرض ولاتميت وإذا كانت هذه العصابات ذات آراء واضحة في سياسة الحكم، ولها أهداف معلومة في توزيع الثروة وإصلاح الحاكم، فبينها وبين عصابات السطو الفوضى بون أى بون بحيث لايجوز لك أن نسلك الطائفتين معا فى نطاق.

لقد كان دعبل رجلاً كالرجال له ارتفاع الإنسان وهبوطه، وقد حاولنا أن نفسر أسباب الهبوط بما لاينقص مميزات الارتفاع فننصف الشاعر من قوم أعدوا عليه كل نقيصة تشين ولم يحاولوا أن يعترفوا ببطولته وإبائه وذلك إجحاف شائن لايقل عن إجحاف من أعرضوا عن رواية شعره فتلاشى بددا فى آفاق الزمان، وخسر الأدب العربى بفقده ثروة ثمينة لها وزنها الثقيل.

ونحن نعلم أن دعبلا تتلمذ على مسلم بن الوليد، وصادقة وآخاه، ولكنه لم ينهج نهجه فى مذهبه الشعرى، فمسلم صانع ماهر يحتفل بأسلوبه احتفالا تلمح وراءه أثر الذهن اللاقط المهذب، والروية المتئدة المميزة، ولكن تلميذه شاعر يستسلم لطبعه فلا يكد الذهن فى تنسيق لفظى، أو تصوير

مخترع، وإنما تنثال عاطفته انثيالا، فتدفعه إلى ضرب من القول يشتعل بحرارة الصدق ويتسم بطابع الإخلاص، فإذا قرأته فإنما تقرأ وحيا يتحدر في انفعال، وهو بصدقه المؤثر يرجح كثيراً مما ينظمه المنقحون الحوليون، فهو يصل إلى النفس دون حجاب، ويستمر الإعجاب به أمدا طويلا لايتيسر لشعر الصنعة في أكثر الأحيان! وقد تعرض البحترى الشاعر إلى الموازنة بين التلميذ وأستاذه فقال في مهذب الأغاني جـ ٧ صـ ٢٦٧: «دعبل بن على أشعر من مسلم بن الوليد لأن كلام دعبل أدخل في كلام العرب من كلام مسلم، ومذهبه أشبه بمذهبهم» ولاشك أن البحترى يقصد بمذهب شعراء العرب ما اطرد عليه الجاهلي والأموى من إجراء القول على طبيعته دون التفات إلى تنسيق لفظي أو محسن صناعي أو تثقيف ذهني، وقد تكون الصور الأدبية قليلة في شعر دعبل وكثيرة في شعر مسلم ولكن الاحتفال بالصورة وتلمس السبل إليها عند الأستاذ يجعلها في كثير من أوضاعها ذهنية محضة، تنبىء عن كد واعتمال، وأصدق منها المعنى الحقيقي الذى يكشف عن خلجة مستترة، أو يعبر عن عاطفة ملموسة تعبيراً تجد فيه حرارة الصدق، وقوة الانفعال، وليس معنى ذلك أن دعبلا الخزاعي لم يحفل

بالصورة الخيالية فى شعره، وإنما معناه أنه لايتعمدها تعمدا مكلفا كما يفعل مسلم وأبو تمام والبحترى فى بعض ما يقولون! بل يرسم ما يجول بنفسه كما يجيء عفو الخاطر، لا كما تنضجه الروية والإمعان، فإذا كثرت الصور الشعرية فى بعض قصائده فهى كثرة طبيعية غير متعمدة تدل على تأثره الأنفعالى الثائر ولاتشى بكد ذهنى يؤلف بين النظائر والأشباه كما جاء فى قوله معاتبا مسلم بن الوليد أستاذه وصديقه:

أيا مخلد كنا عتيدى مودة
هوانا وقلبانا جميعا معا معا
فصيرتنى بعد انتكاثك متهما
لنفسى عليها أرهب الخلق أجمعا
غششت الهوى حتى تداعت أصوله
بنا وابتذلت الوصل حتى تقطعا
وأنزلت من بين الجوانح والحشا
ذخيرة ود طالما قد تمنعا
فلا تلحينى ليس لى فيك مطمع
تمزقت حتى لم أجدلك مرقعا

فهبك يمينى استأ كلت فقطعتها

وجشمت قلبى صبره فتشجعا

ولعلنا نستطيع أن نحكم فى ثقة بأن دعبلا شاعر الطبع الخالص، والصدق الفطرى الصريح، فى عهد أخذ يبتعد قليلا عن الفطرة السمحة، ويتعلق بأهداب الصنعة والتنسيق، لقد طال عمر الشاعر حتى جاوز المائة فعاش قرنا طويلة الأمد ضجر النفس قلق الراحة لايستقر به مكان، وجعل يحمل كفنه معه أينما سار ثقة بما يستهدفه من أخطار، فلقى حتفه قتيلا منبوذا، فلا أقل من أن نذكره الآن فننصفه بعض الشيء ممن فهموه على غير حقيقته، وحسبى أن أكون وجهت الأنظار إلى دراسته نفسيا وتاريخيا، لنصل فيه إلى رأى وطيد.

الأفشين
بطل باسل مضطهد

فى التاريخ الإسلامى مئات من الأبرياء الأفذاذ قاموا بجهود ضخم فى مجتمعهم المعاصر، ثم عصفت بهم الفتن فقوبلوا بغير ما يستحقون، وسجل المؤرخون وقائعهم كما شاعت على ألسنة خصومهم، ولو أنهم تأملوا الحوادث كما يمليها المنطق العادل لأنصفوا البرىء وأعرضوا عن الأراجيف !!

ولكن الحظ يلعب دوره فى كتابة التاريخ، فترى لهذا القائد ما ليس لسواه من التحليل والتعليل، وقد يكونان فى كفة واحدة.

غير أن الله شاء لهذا القائد ما لم يشأه لذاك !!

ومن هؤلاء القواد البسلاء «حيدر بن كاوس» الملقب بالأفشين، فقد ضمه المعتصم إلى جنده حين شاهد بطولته القاهرة، وصحبه فى حروبه المتلاحقة، فأبدى تضحية خارقة، وبسالة عجيبة، وكانت مصر العزيزة أول مضمار حربى تلألأ فيه صيته البعيد، فقد أرسله المعتصم إليها لإنهاء فتن دامية ونزاع طائل بين عرب القيسية واليمانية، فأظهر مقدرة وكفاية، إذ أطفأ الثورة وأعاد الأمن والهدوء، وكر راجعاً إلى المعتصم يحمل إليه أنباء الطمأنينة والاستقرار.

عظم الأفشين فى عين خليفته، فأخذ يرمى به إلى المهالك

فى حروب طاحنة، وفتن مشتعلة، وقد أسدى إلى الإسلام يداً خالدة حين قضى على الحزبية قضاءً مبيداً، وانتصر فى معركة تتصارع فيها العقائد والشهوات، ويتجاذب فى ميدانها العقل والهوى تجاذباً كان له أبعد الأثر فى حياة الإنسانية، وأنضر الذكريات فى صفحات الإسلام. لقد ظهر فى عهد المأمون طائفة من المجوس يدينون بالتناسخ ويستبيحون المحرمات فيتزوجون ذوات المحارم، ويندفعون فى ميدان اللذة اندفاعاً يحطم العمران، ويقومون باستمالة الغرائز بحيث لايمنع أحد مما يشتهى بحال!..

وقد أدعى زعيمهم «بابك الخرمى» أنه إله يملك الأمر والنهى، فآمن به القوم ووعدهم بملك الأرض، وقتال الجبابرة، وما لبث أن تجمع حوله الأوشاب من كل مذهب، فاستشرى أمره، وعظم، وصار ذا خطر عظيم وبأس شديد.. وقد انزعج المأمون لثورة بابك أكبر انزعاج، ووجه الحملات الضخمة لإبادته، فما رجعت بطائل، وتساقط قواده العظام فى الميدان قائداً بعد قائد، فحزن الخليفة حزناً شديداً، ووافته منيته وهو يفكر فى أمر هؤلاء الفوضويين، فاستدعى ولى عهده المعتصم، وكتب له يقول فى وصيته: «وعليك بالخرمية فاغزهم ذا بأس وصرامة، وأكنفه بالأموال والسلاح والجنود

والفرسان، فإن طالت مدتهم فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك، واعمل لذلك عملاً خالصاً راجياً ثواب الله عليه..»

وحين ذاع نعي المأمون فرح الخرمية فرحاً شديداً، واستفحل أمرهم استفحالاً يؤذن بالشر، فدخل فيهم طوفان من أذربيجان، وهمذان، وأصبهان، وغيرها، وبدأ «بابك» يفرض ألوهيته على الأرض، ويبذر تعاليمه المبيدة في الناس، والأفواج خلف الأفواج تترامى على قدميه، فاهتم لأمره المعتصم، واستعرض أبطاله ورجاله فاحصاً باحثاً حتى استقر رأيه على الأفشين، فهو فتى الهيجاء، وبطل الكفاح، فسيره على رأس جيش ضخم مزود بالعتاد والرجال، وانطلق القائد يضع الخطط، ويرسم المواقع والحصون، ويبث العيون والأرصاد، ويخترق الصفوف في الميدان، ويدير المعارك الرهيبة في ظلال السيوف المتشاجرة، والرماح المتعانقة حتى تم له النصر في موقعة «أرشق» وفر الإله المزعوم هارباً مدحوراً، وتبعته جيوش الخلافة حتى نزل متنكراً بأرمينية، فعرفه أحد البطارقة، وكاتب الأفشين بشأنه، فحاصره حصاراً عاتياً، وهزم فلوله المتناثرة هزيمة ساحقة، وقاده مخفوراً إلى المعتصم، فاكتسب بذلك فخر الأبد.. وتبوأ سنام البطولة

الفذة، إذ وقى الإسلام من وحوش الغرائز، وذئاب الإباحية، وأعاد إليه حصونه المنيعة فى بلاد ما وراء النهر بعد أن داهمتها الأعاصير، وقد استقبلت بغداد وسامراء... قائد الخلافة استقبالاً حافلاً خرج فيه الخليفة فى رهط من وزراء الدولة وأعيانها وأمرائها، وأكب الشعراء على القائد المغوار يصوغون له القلائد النفيسة، وعلا الهتاف فى كل مكان بحياة حيدر، واستطار المعتصم به إعجاباً، فأخذ يبعث إليه فى صبيحة كل يوم حلة شرف غالية تصحبها التحف الغاليات الرائعات!!

واقرأ شعر أبى تمام فى الأفشين فستجد الصدى العميق للفرحة الهائلة التى غمرت الإسلام بالقضاء على الخرمية، وستعلم أية منزلة عالية تسنمها القائد الباسل فأصبح سند الخلافة وركنها الحصين.

على أنه لم يخلد إلى الدعة قليلاً بعد كفاحه المرير، فقد سار لمصاولة الروم والانتقام لغدرهم الشائن بالخلافة والإسلام، وذلك أن بابك الخرمى كان قد كتب إلى قيصر الروم، فى أثناء حروبه مع الأفشين، يحرضه على الوقيعة بالثغور الإسلامية فى وقت توجه فيه الخلافة قوتها إليه، ولاتستطيع أن تقف فى وجه الروم، وكأن بابك قد أراد أن

يفرق الكتائب الإسلامية في جبهتين قويتين فلا تستطيع أن تكسب النصر الحاسم في رأيه، وكان ما أراده الثائر الخطير فقد اهتبل القيصر الفرصة السانحة وانقض على (زبطرة) الإسلامية بجيش يزيد عن مائة ألف مقاتل، فقتل مئات النفوس، ثم تقدم إلى (تلطنة) وسواها من الثغور الإسلامية فأمعن في العرب قتلاً وتنكيلاً ولم يبق بد من الانتقام!!

فتحركت جيوش الخلافة إلى القيصر الغادر!، وتقدم القادة العظام على رؤوس الكتائب الزاحفة من كل مكان، وكان الأفشين أول من أوقع بالروم فهزم جيش القيصر، وتابع الزحف مستعيناً بالفرق الأخرى من الجيش حتى أسقط «عمورية» وهي يومئذ أمنع بلاد الروم، وأقوى حصونهم بأساً ومنعة، وانطلق الهتاف يدوى بحياة «حيدر» وقد ضم إلى مجده التالد مجداً طريفاً، وسارت ببطولته الركبان، وتغنى الشعر بفتوته الخالدة، فنظم الحسين بن الضحاك الباهلي رقائقه الفاتنة في مدح الأفشين، وكسب إكبار العامة والخاصة والبطولة في كل زمان مهوى الأفئدة وأمنية النفوس الكبيرة!

أجل لقد رجع «حيدر» من غزاة الروم مظفراً منصوراً، فالتهبت قلوب الرؤساء في الدولة حقداً وحسداً، وتجمعت عقارب المكيدة من كل صوب، فها هو ذا القائد ينعم

بالإعجاب والمجد، ويقول عنه الناس إنه سيف الدولة وبطل الخلافة.

ولئن دام أمره لسطعت شمسه وهاجة وضيئة تستر ما حولها من بدور ونجوم!! لابد من عمل حاسم تكسف به هذه الشمس الساطعة دون انتظار فتبرد أكباد يئز بها الحقد، وتصح قلوب يسقمها الغل، وأنى لذلك، والعامة في كل مكان ينسجون عن البطل الكمي أساطير البطولة، وينشرون حديثه في الآفاق فرحين مهللين؟

فمن أية ناحية يقتحمون على النسر أوجه الشاهق، وقد حلق بالفضاء وأطلق جناحيه في الرياح!!، لن يسقطه من عليائه غير الاتهام الجرىء بالكفر الصريح وفساد العقيدة وسوء الطوية، فذلك كله كفيل بتحطيمه، ومازال الاتهام الديني في كل زمان متنفساً لما يغلي في النفوس من الأحقاد، وقد بذلت الجهود المضنية في نسج التهمة الفاجرة، وأضيفت إليها حوادث شخصية لفقها الكيد وصاغها البهتان، ثم ألفت لجنة المحاكمة من أناس يضطغنون على الأفشين أسود الاضطغان، وفي مقدمتهم محمد بن عبدالملك الزيات، وأحمد بن أبي دؤاد، وإسحق بن إبراهيم، ووقف الأفشين يدافع عن نفسه في قضية خاسرة أعد حكمها قبل حضوره،

وهيىء شهودها الفجرة، فساقوا عدة اتهامات زائفة، وانطلق ابن عبدالملك يسأل، وحيدر يجيب.. لقد اتهم الأفشين أولاً: بأنه حرض «مازيار بن قارن» على قتال آل طاهر، والخروج على المعتصم، وجاء «مازيار» فاعترف بذلك، ولكن الأفشين أنكر التهمة، وطلب الكتب التي حرضه بها إن صح زعمه، فلم يقدم «مازيار» شيئاً، وتلجلج في موقفه.. وطبيعي أن يكون للتحريض إذا وجد رسائل ومكاتبات، فما تقدم من الناس شاهد واحد أوعثر على رسالة مريبة!! وبرغم هذا الإفك السافر فقد ألصقت التهمة بالمذنب البرىء!!

واتهم الأفشين ثانياً: بأنه ضرب إمام مسجد ومؤذنه بالسوط لأنهما بنيا مسجد «باشروسنة»، وقال المتهم: إن بينه وبين ملوك الصفد عهداً على أن يترك كل قوم على دينهم، فوثب هذا الرجلان على بيت للأصنام، واتخذاه مسجداً بدون أمره، فضربا بالسوط حسماً للنزاع ووفاء بالعهد، وهذا تأديب له تبريره المعقول، ولكن القضاة قد استنتجوا منه الكفر الصريح!

واتهم الرجل ثالثاً: بأنه يأكل لحم المخنوقة ويحل أكلها، ويشهد بذلك مجوسى أجبر.. فينفى المتهم ذلك عن نفسه ويسأل: كيف رآه الشاهد، وليس بجاره ولم يؤاكله.. ولكنه

مصدق لدى القضاة برغم ذلك، فيسأل الأفشين: هل هذا المجوسى ثقة فى دينه لديكم!؟ فيكون الجواب بالنفى! ومع الاعتراف بعدم الثقة فشهادته مقبولة ولا ترد بحال.

واتهم الأفشين رابعاً: بأن أهل بلاده يخاطبونه خطاب الآلهة. فقال مدافعاً عن نفسه: لقد كانت هذه عادة القوم معه، ومع آبائه وأجداده -وكانوا من الملوك- قبل أن يدخل فى الإسلام، فلم يرد أن يضع نفسه عن قدرها الأول، فتفسد طاعته لدى أتباعه، وواضح أن حيدر كان يصلى ويصوم وينطق بالشهادتين فشبهة تافهة كتلك لا توجب تكفيراً يقابل بالصلب والتحريق!.

واتهم خامساً: بأنه يحتفظ بكتاب فارسى زين بالذهب والجوهر والديباج وبه بعض الكفر الصريح، فأجاب بأنه ورثه عن آبائه، وكان يقرأ ما به من الأدب دون غيره، ومثله مثل كليلة ودمنة سواء بسواء، ولن يكون الاحتفاظ به خروجاً عن الإسلام فى شىء.

مهما يكن من أمر فقد عجز القضاة أن يدينوا صاحبهمابجريرة صادقة، وبالغوا فى التحامل والافتيات حين يسأله ابن أبى دؤاد عن الختان؟ وهل أجرى له بعد إسلامه..؟ وكأنه بذلك اكتشف ثغرة هائلة ينفذ منها إلى الإدانة

الصريحة، وليس الختان بواجب عين فيكون مجالاً للتشهير إلا أن يكون الحكم المغرض متحيزاً أوضح تحيز ! !

لقد كان العدل الصريح يفرض على المعتصم أن يصم آذانه عما تدبره حاشية السوء من خاتمةرهيبة لبطل فذ ناضل عن الخلافة في أوقاتها العصيبة، ولكنه وهو الخليفة الأمي قد خاف على مملكته الواسعة لوشاية كاذبة نهض بها حقود أثيم، فأغلق أذنيه عن هواجس ضميره، متأثراً بما سمع، وكانت الخسارة فادحة فقد دارت الدائرة على البطل الشهيد .

إن من بدائه الأمور ألا يكون الخصم حكماً فإذا أرجف المرجفون بإنسان ما، وألزمت الحيطة ذويها أن يقوموا بمناقشة ما يذاع في محاكمة علنية واضحة، كان من الأكيد الألزم أن يختار رئيس المحكمة من المحايدين العقلاء، الذين لا يضمرون للمتهم حفيظة تأكل الأكباد، وتحرق الضلوع، وحينئذ يستقيم ميزان العدالة في يد أمينة ذات حيدة وإنصاف، وقد كان أعداء الأفشين في طليعة محاكميه فاتبعوا الهوى الطائش فيما أصدروه وقدموا للأجيال عبرة أليمة يجب أن يتعظ بها الناس !

ومن العجيب أن حوادث التاريخ تكر، وعظات الدهر تتكاثر، دون أن تترك صداها البالغ في النفوس، فكم من

مفاجع دونتها الأيام وتلاها الناس فما منعت شراً يتجدد، أو أطفأت حريقاً يلتهب مما يحتم أن تنهض التربية الإسلامية على أسس عميقة من الإيمان بالمثل والهيام بالمبادئ، فالتاريخ وحده لا يقدم لقرائه العظة البالغة إلا إذا كان لديهم ضوابط رشيدة من الخلق القوى والدين القويم، وبذلك تتكاتف جميع العناصر على استئصال الشرور، واستثمار الفضائل أخصب استثمار.

ولقد تبين للأفشين ما يتربصه من أهوال، فأرسل للخليفة كتاباً تنزف سطوره دماً وتتأجج الزفرات فى حروفه وفواصله، فهو يقول بعد كلام طويل: «إنما مثلى ومثلك يا أمير المؤمنين كرجل ربى عجلاً حتى أسمنه وكبر، وكان له أصحاب يشتهون أن يأكلوا لحمه فعرضوا بذبحه فلم يجبهم، فاتفقوا جميعاً على أن يقولوا له: لم تربى هذا الأسد فإنه إذا كبر رجع إلى جنسه؟ فقال لهم: إنما هو عجل، فقالوا: هذا أسد، فسل من شئت؟ وتقدموا إلى جميع من يعرفون، وقالوا لهم: إذا سألكم عن العجل فقولوا: إنه أسد، فكلما سأل إنساناً، قال: هو سبع... فأمر بالعجل فذبح، وأنا ذلك العجل يا أمير المؤمنين، فكيف أقدر أن أكون أسداً؟ فالله الله فى دمى».

ولعمرى لقد صور البطل البليغ موقف الخليفة منه أدق تصوير فقد امتنع المعتصم أولاً عن إيذائه، فاختلق جلساؤه التهم القاسية فرفضها رفضاً أكيداً، فألحوا عليه حتى تشكك، وبدأ يسأل ويبحث، على حين يجيب السائلون بما يتلقون من إفك صريح حتى تأكد الزعم وأصبح العجل أسداً فسيق إلى سجنه الرهيب، وقتل صبراً ثم صلب بمرأى من العيون.. وانطلق المرجفون يعلنون كفره بمروقه في مجتمع حتى أفلحوا فى خداع العامة، وانبرى أبو تمام مادحه ومهنئه وكان قبل ذلك يهجوه، ويثلبه، ويصمه بالكفر الصريح، ولا أدرى كيف انساق الشاعر مع دهماء العامة؟ فيغير رأيه فجأة تصديقاً لدسيسة كاذبة أو أنه عرف الحقيقة الأليمة واندفع في موكب النفاق يتملق الحاقدين!.

إنها لمحنة قاسية تسجل بالألم واللوعة لشهيد مظلوم ظلت تتبعه الأراجيف متناقلة في صحف التاريخ، وتجد من حملة الأقلام من يسطرها كقضية لا يأتيها الباطل، وها نحن أولاء نوجه الأنظار إلى دحضها بعد زمن بعيد!! وكم فى التاريخ من حقائق تعتمد على الأساطير.

أبو المسك كافور
يهجوه المتنبي دون ذنب

صلى الشريف العلوى فريضة العشاء فى مسجد أحمد بن طولون مساء عيد الأضحى، وكان المسجد يأتلق بالأنوار، وتفوح فيه رائحة الند، إذ لا تزال بقية الأريج نافحة منذ الصباح حين أقيمت صلاة العيد، ولكن جمهور المصلين لم يكن بالكثرة كما كان فى ليلة العيد، حين ازدحم المسجد بالراكعين والساجدين ازدحاماً منقطع النظير، وحين ضاق المسجد ليلاً بزائريه، فرشت البسط من حوله، وأخذ الناس فى تلاوة الأذكار والأوراد منذ صلاة المغرب، حتى أذنت العشاء فأقيمت صلاة الجماعة خارج المسجد وداخله، وكان الذين يصلون وراء الإمام بالخارج أضعاف من أخذوا أمكنتهم بالداخل.

وقد لحظ الشريف العلوى ما كان من الفارق بين الليلة والليلة، ثم مد بصره إلى جانب منبر المسجد فرأى الشيخ الوقور الزاهد أبا عبدالله بن جابار يجلس وحده، ويتمتم بكلمات متصلة كأنه يقرأ سورة من سور الكتاب الكريم بينه وبين نفسه، فلم يشأ أن يقطع عليه تلاوته، وانتظر حتى أديت جماعة العشاء، وتوجه إليه مهنئاً بالعيد، فسلم أبوعبدالله فى هدوء مساكن، كأنه كان مشغولاً بشىء آخر، فقال له الشريف العلوى: لن أتركك وحدك هكذا ساهماً

ساكناً في مساء العيد، فلابد أن نقضي السهرة معاً، إما في منزلك أو منزلي، وبيتي قريب فهيا.

قال أبوعبدالله: ومن الذي يخالف رغبة السيد الشريف، والله لن تتم بهجة العيد إلا برؤية الأحباب من ذرية رسول الله وآل بيته الكريم، وانطلق الرجلان يسيران في صمت حتى إذا أخذا مكانهما في منتدى الشريف، وكان به من ينتظرونه من أتباع وشيعة، أخذ الحديث يتشعب، فقال أحد الحاضرين: لقد جرى الأستاذ أبوالمسك كافور على عادته ليلة العيد، إذ بسط من الموائد، وقدم من الأطعمة ما يكفي جميع الساكنين بمصر لو اجتمعوا في مكان واحد. فقال متحدث آخر: وهل يعقل أن يجتمع أهل البلد دون أن يتأخر أحد، وأنا مثلاً لم أحضر وأعرف كثيرين من أهل الحي الذي أقطنه لم يحضروا، ففيم هذا الإسراف؟ وأين يذهب هذا الركام الهائل من اللحم والخبز والفاكهة والحلوى!

قال الشريف: رويدك يا أخي، إني أعرف أن الخدم يدورون على المنازل بما يبقى ويخصون الفقراء بألذ ما يؤكل، والأستاذ أبوالمسك يشرف بنفسه على التوزيع، ولا يذهب إلى مقره إلا في الهزيع الأخير من الليل.

قال متحدث ثالث: هذا غير الهبات المالية، فنحن جميعاً

نعرف أن أبا بكر المحلي صاحب خزانة أبى المسك يقود كل ليلة عيد جملاً محملاً بالذهب فى صرر كثيرة لا حصر لها يعدها كافور بنفسه، ثم يطوف من بعد العشاء الأخيرة حتى قبيل الفجر على المنازل ومعه صاحب الشرطة، ونفر من خاصة الأستاذ أبى المسك، فيطرق المنازل فى هدوء، فإذا أتاه من طرق عليه الباب قال له: الأستاذ أبوالمسك كافور يهنئك بالعيد ويقول لك: أصرف هذا فى منفعتك، ويسلمه الصرة الذهبية ثم يمضى إلى سواه، وهكذا حتى يؤذن الفجر! نعرف ذلك كلنا، فلا عجب أن يذهب بالطعام إلى منازل المحتاجين!

وكان أبوعبدالله بن جايار، ساكتاً لا يتكلم، فقال له الشريف: جئنا هنا لنتسامر يا أبا عبدالله، وقد رأيتك بالمسجد مطرقاً كالعابس، فجئنا هنا لنبدل جواً بجو، ففيم عبوسك، ولماذا لا تشارك فى الحديث؟

تفرس أبوعبدالله فى وجوه الحاضرين، وهم يعرفون مكانته من التقوى والزهد والعمل الصالح، ثم ابتسم قائلاً: لم أكن بعيداً عنكم فيما تتحدثون، فقد كنت بالمسجد أفكر فى أمر كافور معى ومع الناس!

قال الشريف: أللأستاذ أمر معك!

قال: نعم، فقد فاجأني الليلة الماضية بما لم أكن أتوقع، حيث نهضت في منتصف الليل لأتوضأ، فسمعت طرقاً على الباب، ففتحت، فإذا أمامي أبوبكر المحلي، فسلم عليَّ، فقلت له: ما حاجتك؟ قال: الأستاذ أبوالمسك كافور يخص الشيخ بالسلام، قلت: والي بلدنا؟ قال: نعم، قلت: حفظه الله، الله يعلم أني أدعو له في الخلوات، وأدبار الصلوات.

قال أبوبكر: قد أنفذ معي الأستاذ صرة إليَّ بها مائة دينار، ويسألك قبولها لتصرف في مئونة هذا العيد المبارك.

فتجهم وجهي، وقلت للرجل: نحن رعية الأستاذ، ونحبه في الله تعالى، وما نريد أن نفسد هذه المحبة لعلة من العلل، وأنا غير محتاج، والله هو المعطي، فألح أبوبكر حتى ضايقني، فنهرته وانصرف، ولم تمض ساعة حتى سمعت الطرق المتواصل، فتقدمت لأفتح الباب، فرأيت أبا بكر المحلي، فسألته: ألم تكن عندنا؟ فقال: ذهبت إلى الأستاذ فأخبرته، فبعثني ثانية لأقول لك: يا ابن جابار، ليس لأحد مع الله ملك ولا شركة، فمن كافور؟ من العبد الأسود؟ أتدري من الذي أعطاك؟ وعلى من رددت؟ أنت لا تفرق بين السبب والمسبب، السبب هو أنا، والمسبب هو الله، أترفض عطية الله؟

قال أبوعبدالله: فأخذتني رعشة لعظيم ما سمعت؟ وقبلت الصرة، ومازلت أفكر مذهولاً في الأستاذ حين يقول إليَّ: من كافور؟ من العبد الأسود؟

قال الشريف: لو كنت يا أبا عبدالله تحضر مجلس كافور، أو تسير في ركبه ما استغربت ذلك منه! لقد كان يسير في طريق من طرق المدينة راكباً فرسه المطهم، وحوله حراسه وجنوده، ومن خلفه عماله وذوو المكانة من مستشاريه، فترجل عن فرسه، ووقف على الأرض شاخصاً ببصره إلى السماء، ثم سجد سجدة الشاكر لله، حتى إذا فرغ من سجدته، التفت إلينا وقال في صوت مرتفع سمعه كل من معه: لقد تذكرت شيئاً حصل لي حين قدمت هذه البلاد! لقد كنت عبداً لطباخ يقيم في هذا المكان، وكان يضربني ضرباً مبرحاً، ويجيعني إجاعة قاتلة، رغم ما أبذل في عملي من مشاق، وقد ضربني ذات صباح في هذا المكان الذي سجدت به شكراً لله، ضربني بمغرفة ساخنة كانت في يده، ضربة شديدة لم أحتمل قسوتها المفرطة، ووقعت على الأرض مغشياً عليَّ في هذا المكان والآن وقد مررت به في هذا الموكب تراءت لعيني صورتي وأنا مغشي عليّ، فحق لي أن أسجد!

قال الشريف: إن الذي يقص هذه القصة، إنسان عظيم

النفس، يعرف أن قيمة الرجل بأعماله لا بلونه، فلا يتنكر لماضيه؟ وهذا ما جهله المتنبى حين عير الأستاذ بلونه ومظهره الجسمى، فلم يكن لهجائه صدى لدى الفاقهين.

وكان سيبويه المصرى يجلس مع القوم محدقاً بعينه دون أن ينطق، فلما جاء ذكر المتنبى صاح على عادته: رويدك أيها الشريف! من المتنبى حتى يكون له الحكم على كافور؟

إن الغافلين يقرءون هجاء المتنبى لكافور فيفرحون، ويعدونه ذا ألمعية بارعة ولكنهم ينسون أن المتنبى جاء إلى مصر هارباً من سيف الدولة، فوجد الأمن والرفاهية، ولاقى من إنعام كافور أضعاف ما كان يلقاه من سيف الدولة، فقد أفردت له القصور، وخص بالخدم والعبيد، وجرى بيده الذهب والفضة، وهذا منتهى ما يأمل شاعر متزن من ممدوحه، ولكن الشاعر المغرور لم يرد الذهب والفضة والخدم والقصر، إنه أراد أن يكون أميراً على دولة كبرى يمنحها له كافور، أليس هو القائل:

وغير كثير أن يزورك راجل
فيرجع ملكاً للعراقين واليا

وهو القائل:

أمـا المسك هل في الكأس فضل أنا له

فـــإني أغني منذ حـــين وتشـــرب

فهو يريد أن ينازع كافوراً كأسه التي يشرب منها. وكافور حاكم عاقل، يعرف أن يضع كل إنسان موضعه المناسب، لأن للولاية رجالها، وللأدب رجاله، وهبه جعل المتنبي حاكماً على اليمن، أفيستطيع مثله أن يضبط الأمور، ويمنع الثورات، وهو رجل صناعته الكلام، فكما لا يستطيع كافور أن ينظم قصيدة لا يستطيع المتنبي أن يحكم دولة، ولو أعطاه كافور ما تمناه لما كان الرجل الحازم الذي عرفناه، ثم من الذي يصدق الأهاجي ممن أكثر المدائح من قبل! إن صدق في الثانية فقد كذب في الأولى، ومن اعتاد الكذب محال أن ينطق بالصدق الصريح.

قال الشريف: أحسنت فيما ذكرت يا سيبويه، وأنا أعرف مناقشاتك للمتنبي ومجابهاتك إياه، وقد أصبت موقع الصواب في قضية كافور مع المتنبي، ولكن غيرك لا يدرك غورك البعيد.

قال أبوعبدالله بن جايار: إن الذي يدهشني من أمر كافور أنه دائماً يذكر الناس بأنه كان عبداً أسود ذليلاً يضرب

ويهان، ولم يعبه المتنبى إلا من هذه الناحية، فلم لا ينسى أبوالمسك تاريخ حياته القديم؟

فصاح سيبويه بعد ضحكة طويلة جذبت انتباه الحاضرين فتطلعوا إليه يستمعون قوله: يا قوم ما رأيت أذكى من أبى المسك، إنه مثل دور الحطيئة أبدع تمثيل ففاز بما أراد.

قال الشريف العلوى: ما هذا الخلط العجيب يا سيبويه، أكافور صاحب الأمر والنهى فى أكثر ما حولنا من المماليك يمثل دور الحطيئة أبدع تمثيل!

قال سيبويه: دونك فأسمع...

لقد نشأ الحطيئة لقيطاً لا يعرف أباه على وجه أكيد، وعلم أن الناس سيعيرونه بأمه وأبيه، فبدأ بهجاء الاثنين، ليقول لمن يحاول انتقاصه: أنا أهجو أبى وأمى وأتبرأ منهما، فلن يضيرنى أن أعير بمن بدأت أنا بهجائهما، إن هجاءك له من تحصيل الحاصل ولن ألتفت إليه، وفوجئ خصوم الحطيئة بأنه قطع عليهم الطريق فسكتوا حائرين، وكذلك كافور الداهية، عرف أن الناس لن ينسوا أنه قدم من النوبة عبداً دميماً، فاشتراه طباخ مهين، وأخذ يسومه سوء العذاب، وعلم أنهم فى مجتمعاتهم الخاصة يذكرون ذلك، وكأنه نقيصة فادحة، فرأى أن يسد هذا الباب، فأخذ يردد ما كان من نشأته ليقول

للقوم: ما ترونه موضع نقص أذكره أنا بنفسي شاكراً لله أن بوأني أعظم مكان في مصر، فهل صنع أحراركم بعض ما صنعت!

قال الشريف العلوى: كفى ما تحدثنا به فى هذا المجال، واسكت يا سيبويه، فأنا أعرفك ثرثاراً لا تكف عن الكلام، ولم يدر الشريف أنه بهذا القول فتح على نفسه باباً من اللهب المحرق، إذ هاج سيبويه واحتد يقول: أعلم أيها الشريف أن قولي لم يصادف موضع ارتياحك، لأنك تعتز بحسبك ونسبك، وترى فى أعماقك أن كافوراً دونك فى هذا المجال، وأنا أعالنك بأن كافوراً ليس أفضل منك وحدك! ولكنه أفضل من هارون الرشيد أعظم خلفاء بني العباس.

فتدافع الحاضرون يحولون دون استطراد سيبويه، ولكنه أقسم بالله أن يتم حديثه وإن اعترض الجميع، وانبرى يقول: لقد تعجبتم من قولي إن كافوراً أفضل من هارون الرشيد أعظم خلفاء بني العباس، وأنا أذكر لكم دليلى الذى لا يقبل الرد، إن هارون الرشيد ورث الملك عن أبيه وجده، فلم يبذل أدنى جهد فى اقتطاف الثمرة حين أتته الخلافة عن طريق الميراث، أما كافور فقد نشأ نشأة العبد الممتهن، وكان قصارى شأنه أن يحترف ما يحترفه عبيد النوبة والسودان ممن

تقتحمهم العيون، ولكن عبقريته النادرة ذللت له الصعاب، ومهدت له الأوعار، فجالد الخصوم من السادة، ونازل الأعداء من الأحرار، حتى جمعهم في قبضته، وأخضعهم لرئاسته، وحتى صار كما قال أبوالطيب المتنبي في شأنه:

يدبر الملك من مصر إلى عدن
إلى العراق فأرض الروم فالنوب
إذا أتتها الرياح النكب من بلد
فما تهب بها إلا بترتيب
ولا تجاوزها شمس إذا شرقت
إلا ومنه لها إذن بتغريب

فما تقول في ذلك أيها الشريف؟

تميز الشريف من الغيظ، ولكنه كتم مواجده كيلا يتسع الخرق على الراقع فينقل الحديث مشوهاً إلى كافور، فابتسم على كره، وقال ملاطفاً سيبويه: حنانك أيها النابغة، لقد ظلمتني وظلمت الحق حين قلت: إني أرى أن كافوراً حرسه الله دوني، وكيف، وهو سيد البلاد عن كفاءة واقتدار، ونحن جميعاً ندين له بالطاعة!

قال عبدالله بن جايار: ونحن نعرف منزلتك لديه أيها

الشريف من يوم سقوط المقرعة؟

قال سيبويه: أللمقرعة يوم حتى يكون لسقوطها أيضاً يوم؟

فصاح عبدالله: لا تهزل يا سيبويه، فالحادثة مشهورة متعالمة، فقد كان للشريف العلوى حفظه الله يساير أبا المسك يوماً، وخلفهما بغال تحمل الأمتعة والمال، فسقطت مقرعة أبى المسك، ولم يرها أحد من خدامه وحاشيته، فرأى الشريف أن يلتقطها ويسلمها لكافور، ولكن أبا المسك استعظم ما فعل الشريف فصاح به أمام جميع الحاضرين: أيها الشريف، أعوذ بالله من بلوغ هذه الغاية، ما ظننت أن الزمن يبلغنى إلى أن تحمل مقرعتى إلى، إن هذا ما لا يحتمل، لابد أن أسير معك إلى قصرك لأودعك، أنا وأكون فى ركبك، فحلف الشريف ألا يفعل. فقال كافور: أما إذا أبيت فكل ما تحمل هذه البغال من متاع ومال فهو لك، وقد قوم مقدار هذه المنحة فبلغت خمسة عشر ألف دينار.

قال الشريف: لعل سيبويه يستغفر الله مما قال.

وخاف الحاضرون أن يمتد القول إلى ما لا يليق، فنهضوا مستأذنين، وودعهم الشريف فى ملاطفة وابتسام.

يعقوب بن كلس
أول من نظم دروس الأزهر

من يطالع تاريخ الأزهر فى نشأته الأولى يجد اسم الوزير الفاطمي الكبير «يعقوب بن كلس» يتألق بوضوح، إذ كان من متقدمى علمائه الذين قرءوا العلم فى حلقاته، كما كان صاحب اليد الأولى فى جعله معهداً علمياً لا يقتصر على العبادة وحدها، بل رتب له طلاب العلم من التلاميذ، وأساتذة التوجيه من المدرسين، حتى أخذ بذلك صبغته العلمية وأصبح حرم الشريعة وحمى اللغة على كر العصور، والعجيب بعد ذلك أن نجد من الكتاب من يضطرنا إلى المناقشة فيما كتب عن الرجل كأن تاريخه الثابت المتداول غامض مجهول.

قرأت كتاب «مساجد ودول» للسيدة سنية قراعة، وقد فاز بالجائزة الأولى من وزارة التربية والتعليم سنة ١٩٥٨، كما صدره السيد وزير الأوقاف الأسبق بكلمة تجمع الثناء عليه وتدعو إلى متابعة التأليف فى موضوعه، مما يوحى بأهميته وجودته، ولكنى - والحق يقال - لمست فى بعض فصوله تسرعاً عاجلاً، واستنباطاً بعيداً يدعو إلى إعادة النظر فى مباحثه، وسأقصر حديث اليوم على ما جاء بشأن الوزير الفاطمى يعقوب بن كلس، إذ ظلمته الكاتبة ظلماً لا يستند إلى مرجع تاريخى واحد، ولكنها عرفت مبدئياً أنه كان يهودياً وأسلم، فرأت فى يهوديته السابقة ما استعانت به

على الاتهام والازدراء، ولم تقدم مرجعاً واحداً يؤيد رأيها في الرجل المظلوم! ولكنه الاستنتاج المتسرع فقط.

وسأنقل هنا بعض ما قالت الكاتبة الفاضلة، ثم أشفعه بما أرى من النقد والتصويب، راجياً أن أصل إلى الحق من طريق قريب.

تقول السيدة سنية قراعة فيما قالت ص ١١٥ :

«وعندما هرب اليهودى الحاقد «يعقوب بن كلس» من مصر حتى لا يظفر به أعداؤه فى بلاط كافور الإخشيدى، ووصل إلى المغرب مركز الدعوة الفاطمية ليحرض المعز على غزو البلاد التى آوته وأعلت قدره، لم يكن يبغى إلا أن يتم الفتح الفاطمى ليعود ثانية إلى مصر، وقد نال من سادته الجدد ثمن خيانته، فيصبح من المتقدمين في الدولة الجديدة.

لقد وجد اليهودى الطامع فى الدعوة الإمامية بغيته، وكان نطقه بالشهادة يوم أشهر إسلامه معبراً إلى التمكن والسيادة، ووسيلة انتهازية للتقدم فى صفوف الدعوة، حتى لقد تمكن وهو حديث العهد بالدين والدعوة من وضع مصنفات فى فقه الشيعة وشتى أهدافها السرية التى لا يصل إلى معرفتها والعلم بها غير أصحاب الحظوة من المقدمين المقربين إلى الإمام.

لقد حالت بعض الظروف المذهبية الخاصة دون يعقوب والظهور فى حلبة الحكم أيام المعز، وبرغم هذا لم يتبرم ولم يحاول أن يرفع رأسه، بل تصاغر وتراجع واعتزل، واعتبر تلك الفترة فترة استجمام، ورغبة فى الاستفادة من ذلك الاعتزال بأن راح ينقب ويبحث ويدرس».

ثم تحدثت المؤلفة بإفاضة عن جهوده التعليمية فى عهد العزيز بالله، لتخلص منها إلى قولها العجيب ص ١٢٤ :

لقد كان اليهودى القديم الذى تظاهر بالإسلام، ووجد فيه متنفسه وذريعته إلى المطامع، مازال يفكر بعقلية اليهود الذين قال الله فيهم: «لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود».

ومن المؤسف أن الرجل وجد سلاحه البتار فى الدعوة الغامضة، فأراد أن يشحذه وأن يوجهه إلى أهداف أقرب، ليصيب ويدمى ويقتل ويشفى غليل العداوة من المسلمين الذين آووه وأكرموه.

وقبل أن نأخذ فى مراجعة هذه الأقوال نذكر أن كتابة التاريخ عسيرة شاقة تستلزم قراءة الصحف الكثيرة من متقدمة ومتأخرة، ويوجب على صاحبها أن يبنى استنباطه على استقراء تام لما قيل، فمن التسرع الواضح أن تطرأ على الكاتب فكرة توحى بها مناسبة ما، فتكون نقطة ارتكاز تمتد

وتعظم دون أن تسندها رواية صحيحة أو حقيقة ناصعة ! وإلا فهل كانت يهودية ابن كلس الأولى كافية عند الكاتبة لأن تلغي من الوجود صحائف أعماله وسجلات مؤلفاته، وتجعل منه وصولياً حاقداً يظهر الإسلام ويبطن الكفر، وإن أجمع على غير ذلك مؤرخو الرجل، ووقفوا من الكاتبة الفاضلة على النقيض.

نحن نعلم أن كثيراً من اليهود كعبد الله بن سبأ وأشياعه أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، يريدون أن يطفئوا نور الله بما يأتون ويجترمون، فجاءت أفعالهم المنكرة صارخة بإجرامهم البغيض، ولم يسكت عنهم أحد ممن يميزون الطيب من الخبيث، بل وضعت أفعالهم السافرة موضع التعليل والتشريح، فدمغتهم بالخيانة اللئيمة، والحقد الشانئ البغيض، وأجمع المؤرخون على دناءتهم المخزية، دون أن يجرؤ كاتب على تبرير مسالكهم الشائنة، ومؤامراتهم المستفظعة، ولكننا نعلم مع ذلك أن يهودياً كيعقوب بن كلس قد أسلم عن اعتقاد ولم يسلف من الأعمال ما يضعه موضع المؤاخذة من معاصريه مع من تلاهم من الأجيال، أفيجوز لنا أن نطمس أعماله الرائعة، وأن نكذب التاريخ في تسجيل صنائعه الحافلة، لأنه كان يهودى النشأة فقط ! مع أن الإسلام يجب ما

قبله كما قال الرسول الكريم ! ! ذلك منطق ساذج نربأ بذوى الأقلام أن يأخذوا به فى قليل أو كثير ، وسنناقش الآن بعض ما ذكرته المؤلفة الأديبة لنرفع عن الوزير المظلوم ما نزل به من حيف شديد ! !

تقول السيدة الفاضلة : «عندما هرب اليهودى الحاقد يعقوب بن كلس من مصر حتى لا يظفر به أعداؤه في بلاط كافور الإخشيدى ، ووصل إلى المغرب مركز الدعوة الفاطمية ليحرض المعز على غزو البلاد التى آوته وأعلت من قدره ، لم يكن يبغى إلا أن يتم الفتح الفاطمى ليعود ثانية إلى مصر ، وقد نال من سادته الجدد ثمن خيانته ، فيصبح من المقدمين فى الدولة الجديدة» .

وظاهر هذا الكلام ، أن الرجل حين هرب إلى المغرب كان يهودياً حاقداً خائناً يخاف ذوى النفوذ فى بلاط كافور ، وهذا غير الواقع ، فقد أسلم الرجل قبل هروبه إلى المغرب بأمد طويل ، إذ أنه كان قبل إسلامه أثيراً لدى كافور الإخشيدى ، تسند إليه وظائف العمارة والجباية والخراج ، فيؤديها بنزاهة بالغة واهتمام كبير ، وكان كافور الإخشيدى عاقلاً لا ينخدع ، فلمس من مهارة يعقوب وإخلاصه ما جعله يقيمه رئيساً لديوانه الخاص ، ثم يبالغ فى الثقة فيأمر أصحاب الدواوين ألا

يصرف شئ ما من المال دون توقيع ابن كلس !!

وإن إنساناً يبلغ هذا المبلغ من نفس الحاكم الألمعى الحصيف وهو بعد يهودى يدين بغير ما يؤمن به السواء من رجال الأمة لذوى ألمعية لامعة، وحيلة ممتازة، فإذا أعلن إسلامه بعد استعلاء منزلته وبعد صيته، فهو إسلام البصير المدرك المتيقن، إذ أنه درس قواعد الدين سراً قبل أن يسلم، وألم بما تتضمنه شريعة الإسلام من عبادات ومعاملات وعقائد على يد أناس متخصصين، حتى إذا اقتنع بما درس أعلن إسلامه فجأة، فدخل ـ كما يقول المؤرخون ـ جامع عمرو وصلى الصبح فى موكب حافل، حتى إذا انتهى من صلاته ركب فى موكبه إلى كافور، فأحسن استقباله وهنأه وخلع عليه، ثم رتب لنفسه شيوخاً من الفضلاء جعل يقرأ عليهم القرآن والحديث، ويتعمق معهم فى القراءات والأصول، وظل على حظوته لدى كافور إلى وفاته سنة ٣٥٦هـ!!

وكان من الممكن أن تسير حياته هادئة سهلة بعد ذلك، ولكن الوزير جعفر بن الفرات قد تحرش به، وأمر باعتقاله طمعاً فى أمواله الكثيرة، وكانت الدولة الإخشيدية بعد وفاة كافور فى احتضارها الأخير، تدب فيها جراثيم الفساد والضعف، وتعصف بأمرائها عوامل الترف والنزق والمجون،

وقد حل الوباء بالبلاد وارتفع الغلاء ارتفاعاً فاحشاً أوجد تذمر العامة بالحاكمين، ففكر كثير من الوجهاء والأعيان فى الاتصال بالمعز الفاطمى، لينقذ البلاد مما انحدرت إليه بعد كافور، وكان يعقوب بن كلس أحد هؤلاء الذين ولوا وجوههم شطر الدولة الفاطمية فراراً من الظلم والعسف، وتطلعاً إلى عهد جديد، يؤذن بالاستقرار النسبى بعد القلق والفزع والانحلال، فلو كان اتصال يعقوب بالمعز خيانة فى رأى الكاتبة، فلها أن تجعل جميع الذين اتصلوا به، غير يعقوب من المسلمين والذميين خونة أيضاً، وهذا ما لم يقل به أحد، لأن أكثرية الشعب قد قابلت جوهر الصقلى بالترحيب، ولم تقم حرب ما بين الفاطميين والمصريين عند قدوم الغزاة من القيروان، ولو أراد يعقوب الخيانة مثلا لوجه إلى البيزنطيين دون الفاطميين، فهم أثناء هذه الفترة كانوا أعداء المسلمين!

أما الفاطميون فلم يكونوا فى رأى الأكثرية الكاثرة شراً عن الأتراك الإخشيد، بل كانوا وسيلة الإنقاذ من العنف الجائر مع ما صحبه من الأوبئة المتلاحقة والمجاعات المتتاليات!!

وأنظر إلى كلام المؤلفة من ناحية ثانية فأقرر أن الرجل لو أخر إسلامه إلى حين اتصاله بالمعز لكان هناك و جه ضعيف

لصحة ما قالته من «أنه وجد فى الدعوة الإمامية بغيته، وكان نطقه بالشهادتين يوم أشهر إسلامه وسيلة انتهازية للتقدم فى صفوف الدعوة الفاطمية!».

ولكن إسلام الرجل قد تم فى عهد كافور، والبلاد المصرية حينئذ من الثبات والاستقرار والطمأنينة بحيث لا يفكر أحد فى نجاح حملة ما شرقية أو مغربية توجه إلى مصر!! ثم إن ابن كلس قد شفع إسلامه بدراسات أكاديمية جعلته فى صفوف كبار العلماء، فقد ألف فيما بعد كتباً كثيرة فى الفقه الإسلامى والأديان السماوية، والقراءات القرآنية وآداب رسول الله، والحديث النبوى، وواضح أن هذه الدراسات العميقة المتشعبة لا يضطلع بها غير عالم مخلص يعتنق مذهباً يؤمن به وينافح عنه، وفرق بعيد بينها وبين دراسات الاستشراق عن الإسلام فى العهد الحاضر، لأن كتب يعقوب كانت كتب الدولة الرسمية فى العهد الفاطمى، وقد أقرها أفذاذ العلماء من آل النعمان وهم حملة الفقه الشيعى إلى مصر، كما أقرها المعز الفاطمى ووالده العزيز، فلو كان بها شبهة مغرضة توحى بفساد عقيدة يعقوب، وشذوذه عن الدائرة الإسلامية، ولو فى رأى الفاطميين على الأقل، ما تبوأت هذه المكانة فى الدولة الجديدة، بل إن يعقوب كان

يعقد مجلساً علمياً يحضره كبار الفقهاء والقضاة والمتكلمين والمتناظرين كل أسبوع، فيشرح ويفسر ويعترض ويناقش ويستدل بالقرآن والحديث.

والذى يظهر الإسلام ويبطن اليهودية لا يتسنى له أن يجد من المطاوعة النفسية والإخلاص العلمى ما يبوئه صدارة العلماء، وإمامة الفقهاء دون أن تصدر عنه بادرة ما توحى بانحرافه والتوائه، بل إن عنايته بنشر العلم بالجامع الأزهر، وتخصيص طائفة من العلماء للدراسة أولاً والتدريس ثانياً مع إجراء النفقات الوافية عليهم كل أسبوع لما يكفل لهم رغد العيش ونعيم الحياة مع الاهتمام الحريص بجمع الكتب الدينية ونسخها وتذليل طرقها للقراء والمستفيدين وإقامة الدور الخاصة بالمكاتب والوراقة والنسخ، كل ذلك ينطق باهتمام المؤمن وحرص العالم وكلف الفقيه، وقد شاع أمره واستفاض حتى لم نجد كاتباً متقدماً جعل من عقيدة الرجل موضع الغمز والتجريح على كثرة من أرخو للوزير فى القديم والحديث كابن منجب الصيرفى وابن خلكان والمقريزى وابن تغرى بردى وسواهم من المؤرخين إلى أن جاءت صاحبة «مساجد ودول» فخرجت علينا برأيها الجديد دون دليل !.

وكنت أطمع أن تقرأ المؤلفة تاريخ الرجل فى مظانه القريبة

كيلا تسجل عليه غير الواقع الأكيد، فقد ذكرت «أن بعض الظروف المذهبية الخاصة قد حالت بينه وبين الظهور فى حلبة الحكم أيام المعز، وبرغم هذا لم يتبرم ولم يحاول أن يرفع رأسه بل تصاغر وتراجع، واعتبر هذه الفترة فترة استجمام»، وهذا كله غير الواقع، فالرجل لم يتضاءل ولم يتصاغر فى عهد المعز، بل أسندت إليه كبريات المهام من سياسية ومالية وعلمية، فقد كان القيم الأول على شئون الخراج والحسبة، و المستشار المفضل فى أمور السياسة والتعمير والإنشاء، والعالم المصنف المشرع ! إذ بدأ فى إصدار مدونته الفقهية، وقد سميت فيما بعد بالرسالة الوزيرية، ويقولون عنها إنها تبلغ نصف حجم البخارى، وتشتمل على فقه الطائفة الإسماعيلية، وقد تبرع الرجل فذكر أنه نقل أحكامها مما سمعه من دروس المعز لدين الله، وهو قول يزيد فى قيمة الرسالة وجلالتها الشرعية والسياسية دون أن تكون له حقيقته المسلمة، إذ لا يعقل أن المعز كان ممليا، وابن كلس مجرد كاتب، ولو كان الأمر كذلك لأسندت الرسالة مباشرة إلى المعز، ولعل ما اشتهر عن العلماء من نسبة كتبهم حيناً أو إهدائها أحياناً إلى الرؤساء كان عاملاً فى تقرير هذه النسبة إلى المعز، ومن يدرى فلعل المعز تكلم فى بعض المسائل

الدينية، فحرص يعقوب على تدوينها والتعليق عليها، وضم المتشابهات من المسائل والفروع والأبواب لها، ثم جعل من ذلك كله ما نسبه إلى علم الخليفة وتوجيهه.

فالرجل إذن كان صاحب المكانة المرموقة فى عهد المعز دون أن يجد ما يضطره إلى الاعتزال والتراجع، والمطلع على تاريخ الفاطميين بمصر يعرف أن منصب الوزارة لم يوجد إلا فى عهد العزيز بالله، وقد كان يعقوب أول من تقلده ولقب حينئذ بالوزير الأجل. وإذن فقد أسندت إليه أعمال الوزير فى عهد المعز دون لقبه الذى لم يوجد بعد، حتى إذا وجد فى عهد العزيز أسند إليه قبل سواه، ويهمنا هنا أن نعلن ما ذكره الأستاذ البحاثة محمد عبدالله عنان، وهو حجة فى التاريخ الفاطمى، بشأن هذه الحقيقة الواضحة نقلا عن مجلة الرسالة العدد ١٣٦ فى ١٠ / ٢ / ٣٦ حيث يقول مستندا إلى أمهات المراجع المعتمدة:

«ولما قدم المعز إلى مصر بأهله وأمواله وجيوشه فى رمضان سنة ٣٦٢هـ قدم معه ابن كلس، وقلده المعز شئون الخراج، والأموال والحسبة والأحباس وسائر الشئون المالية الأخرى، فأبدى فى إدارتها وتنظيمها براعة، وزاد الدخل زيادة واضحة، ثم عهد إليه المعز بشئون (قصره) الخاص» فكيف

تسترسل الكاتبة بخيالها فى معرض التاريخ لتصور من ابتكارها الخاص مسألة التصاغر والتراجع والاعتزال، ثم تبنى على ذلك ما تفترضه فى الرجل الكبير من خيانة وخداع!

على أن أعجب ما قرأته للمؤلفة هو قولها:

«إن اليهودى القديم الذى تظاهر بالإسلام ووجد فيه متنفسه وذريعته إلى المطامع مازال يفكر بعقلية اليهود الذين قال الله فيهم: «لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود» [المائدة / ٨٢]. ولو كان الرجل من أشد الناس عداوة للمؤمنين حقا ما كانت مؤلفاته الدينية الكثيرة المرجع الأول لدولة إسلامية فتية تجمع عشرات الفقهاء. والقضاة من ذوى البصر النفاذ، وقد درسوها باهتمام وناقشوا الرجل فى أكثر مسائلها على رءوس الأشهاد فما وجدوا بها ما يعاب، بل لو كان الرجل كذلك ما رتب فى قصره الخاص عشرات العلماء والفقهاء والقضاة للدراسة العلمية الخالصة، ثم أجرى عليهم الأرزاق من جيبه الخاص وحدد لهم يوما خاصا فى الأسبوع للنقاش ولمطارحة الحجاج.

هذا إلى ما سبقت الاشارة إليه من صلته بجماعة من الفقهاء بالأزهر وبناء الأروقة الخاصة بهم وتوجيه العزيز إلى رعايتهم وتقديمهم وحمل الناس على احترامهم وتعظيمهم،

مع تخصيص جانب كبير من قصره لجماعة من الكتاب ينسخون القرآن والحديث وكتب الفقه والطب!!

أما اهتمامه بالجامع الأزهر وجامع الحاكم ومسجد عمرو، فمما يضاف إلى سجله الدينى الحفيل، وقد روى المؤرخون أن الوزير حين مرض مرض الموت زاره الخليفة العزيز بنفسه، وقال له فى تأثر: وددت لو أنك تباع فاشتريك بملكى أو تفتدى فأفتديك بولدى فهل من حاجة توصى بها؟

فبكى ابن كلس وقبل يده وجعلها على عينه، ثم أوصى العزيز بعدة وصايا هامة كانت موضع تقديره، وحين مات جزع عليه الخليفة ودفنه فى قبة كان قد أمر ببنائها لنفسه، وآثربها وزيره العزيز، ثم أصدر أمره بإغلاق الدواوين عدة أيام حداداً عليه، وشيع تشييعا لم تعرفه مصر آنذاك لوزير كبير حتى رثاه مائة شاعر بمائة رثاء!!

فليت شعرى أتكون هذه المكانة لخائن مضطغن حقود يخفى نياته الخبيثة عن جميع رجال عصره ومن تلاهم من الباحثين حتى تعرفها المؤلفة الفاضلة توهماً دون دليل:

إن الطريقة الطبيعية لكتابة التاريخ أن تستقرئ مراجعه الكبيرة، ثم توازن وتنقد وتفسر، أما أن تتوهم فتجرم، ثم تؤرخ فتلك طريقة تحتاج إلى تعديل.

أبو العلاء ومعارضة القرآن

أصدرت الهيئة العامة للكتاب سِفْرًا تحت عنوان «تعريف القدماء بأبى العلاء» حوى جل ما قاله السابقون فى مؤلفاتهم عن أبى العلاء وخالفهم ينقل عن سابقه حتى لتكاد ترى النص لم يختلف فى أكثر سطوره، ومما وقفت عنده، النص على هذه الأكذوبة القائلة بأن أبا العلاء قد عارض القرآن بكتاب (الفصول والغايات) وتكون هذه الجملة مقدمة لهجوم صارخ على الرجل، ورميه بالإلحاد! وفى المؤلفين الذين احتشدوا فى هذا الكتاب القليلون ممن أنصفوا الرجل، ورفعوا مكانته، والذين ارتابوا فى شأنه فلم يجزموا برأى إذ رووا من الأبيات ما يدل على الإلحاد الصريح وما يدل على الإيمان المطمئن الثابت عن يقين! ومجمل ما أراه فى هذه القضية أن الرجل مر بمرحلتين فى عمره الجديد، مرحلة الشباب وفيها نزغ الشيطان بينه وبين اليقين فأتى بما يفزع ويروع، ومرحلة الكهولة إلى الشيخوخة، وفيها استقام على النهج السوى، وكان على الذين يلتقطون أبيات الزيغ ليجعلوها وحدها موضع الاتهام أن يقرءوا كل ما قال وليعلموا أن الله قد وعد الذين أسرفوا على أنفسهم ألا يقنطوا من رحمة الله فإن الله

يغفر الذنوب جميعا !

والأغـرب العـجـيـب من أمـر الواعـظ الداعـيــة (ابن الجـوزى) أنه جـزم بإلحـاد المعـرى، وقـد قـال عن كـتـاب (الفـصـول والغـايات) : «وقـد رأيت لأبى العـلاءالمعـرى كـتـابا أسـمـاه (الفـصـول والغـايات فى مـعـارضـة السـور والآيات)، وهو فى غاية الركاكة والبـرودة فـسـبحـان من أعمى بصره وبصيرته».

وهذا القـول رجم بالغـيب تماما، ويدل على أن الـفـقـيـه الورع الواعظ قـد كـذب فى قـولـه «رأينا لـه كـتـابا أسـمـاه الفـصـول والغـايات فى مـعـارضـة السـور والآيات»(١) لأن الكتـاب كـمـا نراه الآن وقـد طبـع منذ سبـعـين عـامـا يـسـمى بالفـصـول والغـايـات فى تمجـيـد الله تعـالى والعظات» والعنوان مكتـوب بهـذه الصـيـغة فى المخطوطات كلهـا فقـول ابن الجوزى «الفصول والغايات فى معارضة السور والآيات» يدل على أنه لم يقرأ عنوان الكتاب وهو أول ما يُقرأ عادة! بل يدل على أنه لم يقـرأ صـفـحـة منه! ولكـنه أصـدر حكـمـا صـار مـسـلمـاً لدى الكـثـيـر ممن تلوه! وهـو فى هذا الشـطـط يذكرنى بحكمة الجائر على أبى حيان التوحيدى حيث قرنه مع أبى العـلاء فى حـبـل واحـد ورمـاهـمـا بالإلحـاد والزندقـة،

وكتب أبى حيان قد طبع الكثير منها وليس بها ماتشم منه ريح الزندقة! فعلام اتهام الأبرياء.

أما الفريق الذى أنصف أبا العلاء فهم نفر من الفضلاء، نذكر فى مقدمتهم ابن العديم، وابن الوردى أما ابن العديم، فقد خصه بكتاب حافل سماه الإنصاف والتجرى فى دفع الظلم والتجرى عن أبى العلاء المعرى قال فيه ببعض التصرف:

إنى وقفت على جملة من مصنفات عالم المعرة أبى العلاء. فوجدتها مشحونة بالفصاحة والبيان مشتملة من علوم العرب على الخالص واللباب، لايجد الطامح فيها سقطة، ولا يدرك الكاشح فيها غلطة وقد قصده جماعة لم يعوا وعيه وحسدوه إذ لم ينالوا سعيه فتتبعوا كتبه على وجه الانتقاد ووجدوها خالية من الزيغ والفساد فحين علموا سلامتها من العيب والشين، سلكوا فيها معه مسلك الكذب والمين، ورموه بالإلحاد والتعطيل والعدول عن سواء السبيل، فمنهم من وضع على لسانه أقوال الملاحدة، ومنهم من حمل كلامه على غير المعنى الذى قصده فجعلوامحاسنه عيوبا وحسناته ذنوبا وعقله حمقا، وزهده فسقا ورشقوه بأليم السهام وأخرجوه عن الدين والإسلام، وحرفوا كلمه

عن مواضعه وأوقعوه فى غير مواقعه».

ونأخذ من هذا القول أن فى آثار أبى العلاء ما هو مكذوب عليه إذ تعمد المغرضون أن يسيئوا إليه فأجروا على لسانه من فنون الزندقة مالم يقل، وأخذوه بما ألصقوا به من اتهام ونسبوا له شعرا لم نجده فى سقط الزند، ولا فى اللزوميات، وهما المصدران الوحيدان لشعره، وقد علق الأساتذة محققو مجموعة التراث على كثير من الأبيات ذات الانحدار العقدى بأنها غير موجودة فيما ألفه من الكتب التى بقيت إلى الآن!

أما ابن الوردى فقد التزم الحق حين قال إنه حين نظم كتاب (لزوم ما لا يلزم) وكتاب (استغفر واستغفرى) كان حائرا هائما ومذبذباً نافرا، يقر فيهما أن الحق قد خفى عنه ثم قرأت كتاب (ضوء السقط) فكان عندى مصلحا لفساده، موضحا لرجوعه إلى الحق وصحة اعتقاده فإنه كتاب يحكم بإسلامه ويتلو لمن وقف عليه بعد كتبه المتقدمة :

﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾

[الضحى / ٤]

فقد ضمن هذا الكتاب ما يثلج الصدر، ويلذ السمع، ويقر العين، ويسر القلب، ويطلق اليد، ويثبت القدم من تعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم خير بريته، والتقرب إلى الله بمدائح الإشراف من ذريته، والإقرار بالبعث، والإشفاق من اليوم العسير، وتضليل من أنكر الميعاد والترغيب في أذكار الله والأوراد، والخضوع للشريعة المحمدية وتعظيمها وهو خاتمة كتبه، والأعمال بخواتيهما!

ونصل الآن إلى كتاب «الفصول والغايات» التي كثرت الروايات الموهومة عنه حين زعمت أن أبا العلاء قد عارض به القرآن، والذي يعارض أثرا سابقا يعمل على محاذاته في نظم المعاني وترتيب السور، والحديث عن التشريع والهداية وقصص السابقين، والترهيب من النار والتشويق إلى الجنة، والحث على الفضائل الأخلاقية مما اشتمل عليه الكتاب العزيز. ولكن الكتاب وقد طبع جزء كبير منه خاص بالتحميد والمواعظ، وقد جعله شذورا وفصولا منوعة تحت ما يسمى بالرجع وما يسمى بالغاية، وكل من الرجع والغاية ينتهي بحرف يلتزمه وقد رتب هذه الفصول ترتيب الحروف الهجائية

ثم هو يذكر بين كل مرجع وآخر تفسير الكلمات الغريبة فأين هذا كله من النسق القرآنى الفريد، وأضرب مثلا يوضح أسلوب الفصول والغايات من قول أبى العلاء:

«خوف الله معقل الأمن، والحكم له فى العاقبة والمبتدأ، لا يرد عليه عجب، وكيف يعجب من شيء خالق الخلائق ومبتدع الآزال، أيقن فما استفهم، وهل يستفهم عالم أسرار الفهمين، ولاتعرض له الأمانى، إنما تخطر لمن تضعف قدرته دون المراد، فليت جسدى من خيفته مثل الشن، وأدمعى لذلك شبيهة القطر، طوبى للمترنمين بالتسبيح ترنم هزج النهار، حتى إذا النجم طلع ترنم بالذكر مع البعوض إعظاما لوارث الوارث».

فهل هذا أسلوب من يبتغى معارضة القرآن؟ ثم الذى يقصد معارضة ذى الجلالة لا يكتب كتابة فى التسبيح والتحميد. بل يأتى بأسلوب من يحاول الارتقاء إلى أوجه، والرجل من الانكسار والمذلة والخشوع فى توقف الرهبة الغاشية والاستعظام البالغ حد الدهش والروع وكان على هؤلاء الذين تتابعوا على نقل الخطأ ناسخا خلف ناسخ أن يقرءوا شيئا مما يحكمون عليه، أما أن

يجرى الخالف وراء السالف، وهو فى نظر نفسه مؤلف يكتب للأجيال، وأستاذ يرشد التلاميذ فقد انتقل من وصف المؤلف إلى وصف الوراق الناسخ الذى لا يعى ما يقول!

ونحن بالنظر إلى أحوال أبى العلاء مع الناس منذ وُجِدَ إلى هذا العصر نجده ذا أطوار ثلاثة ففى الطور الأول وهو طور حياته التى عاشها بينهم نجده محاطا بالتبجيل والإعظام يأتيه التلاميذ من كل فوج فيتلمسون المثالة بالتلميذة عليه والأخذ عنه، ومن قدر له أن ينال شيئا من علمه باهى وافتخر ومضى يذيع فى معشره قاصيا ودانيا أنه رأى أبا العلاء وسمع منه. ثم إن الكبار من رجال العلم قد راسلوه وافتخروا برسائله التى كتبها ردا على رسائلهم وعدوا ذلك شهادة بارتفاع أقدارهم، وسمو منازلهم فى دنيا الفكر والأدب والعلم إذ إنهم حظوا بمراسلة أبى العلاء. ودع عنك العلماء والأدباء والشعراء الذين يتلمسون مقابلته فى منزله الصغير ليقرءوا عليه بعض الآثار والأشعار فيكون تعليقه بمثابة التوقيع الحكومى الذى لا يدفع، دع عنك هؤلاء وانظر إلى الرؤساء الكبار من ذوى الرئاسة والسلطان ممن كانوا

يتمتعون بالحكم المطلق أمرا ونهيا، وإعداما واستبقاء فكلهم يعرف منزلته ويرعى شفاعته ويصفح للمذنبين بكلمة رجاء، فقد كان صالح بن مرداس أمير حلب يعتزم تدمير المعرة بلدة أبى العلاء،إذ خرج أهلوها على حكمه وأعلنوا فساد سلطانه وسوء تجبره، وخاف أن تحذوا البلاد المجاورة حذو أهل المعرة فخف إليها غاضبا ورماها بالمجانيق، ودافع أهلوها ما استطاعوا فلم يثبتوا ساعة من زمن، فلما أحسو بسوء العاقبة ذهبوا إلى أبى العلاء يرجونه أن يشفع فى أهله إلى صالح بن مرداس، ولو لم يكن لأبى العلاء من حسن السمعة وجهارةالصيت عند ابن مرداس ما توسل به المنكوبون، فاستجاب الرجل شهامة وحمية وخرج مع من يقوده إلى مجلس صالح، فقيل له إن بالباب رجلا أعمى يقوده رجل نحيل ويطلب لقاءك فصاح صالح: أبطلوا القتال فقد جاء أبو العلاء واستيقن أنه شفيع القوم، فقام لاستقباله وأجلسه مجلس الضيف وسأله: ألك حاجة؟ فقال أبو العلاء: الأمير أطال الله بقاءه كالسيف القاطع، لان متنه وخشن حداه، وكالنهار الماتع، قاظ وسطه، وطاب أبراده:

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾

[الأعراف / ١٩٩]

فقال صالح : قد وهبتها لك يا أبا العلاء ثم فاكهه يقول : أنشدنا من شعرك شيئا نرويه عنك قال ارتجالا .

تغـــيـــبت فى منزلى برهة
مستتر العيب فقيد الحسد
فلمـا مضى العمـر إلا الأقل
وحم لروحى فـراق الجسـد
بعـثت شـفيعـا إلى صالح
وذاك من القـوم رأى فسـد
أيسـمع منى سجع الحمـام
وأسـمع منه زئيـر الأسـد
فـلا يعجـبنى هذا النفـاق
وكم نفـقت محنة ماكسـد

فقال صالح : بل نحن الذين نسمع منك سجع الحمام، وأنت الذى نسمع منه زئير الأسد ثم بخيامه فوضعت وبأثقاله فرفعت ، فرجع أبو العلاء إلى المعرة وهو ينشد

نجى المعـــرة بن براثن صـــالح
ربٌ يداوى كل داء مـــعـــضل
ما كـان لى فـيـها جناح بعـوضـة
الله ألبـــسهم جناح تفـضل

فالذى لا يجد قومه غيره شفيعا والذى يرعى صالح الغشوم شفاعته لن يكون فى الناس إلا رجلا ذا مكانة ومهابة وإجلال أما إذا أشاع عنه بعض الحاسدين تخرصا واجتراء، فهذا شأن النوابغ فى كل عصر، ولن تضر عبارة يقولها مثل من قال له: لم تهج إلا الأنبياء والمرسلين لن تضر الرجل فى محبسه بل هى دليل على قلة ذوق الضيف وتسامح المضيف حين أطرق ولم يرد.

ولندع قصة صالح ولننظر ما كان من أمره عند وفاته فقد ارتجت المعرة وماجاورها من القرى عند سماع منعاه ووقف على قبره أكثر من ثلاثين شاعرا يرثونه، وقد قال بعض الرواة إنهم ثمانون، والناس جميعا يبكون لفراقه! ويعلمون كم خسروا من الزهد والورع والأدب والفضل! أفيكون هذا الإجماع على فداحة الخطب، وكبر المصيبة مسوقا لرجل ملحد زنديق؟! هذا ما لا يقبله منطق سديد! ولو شئت أن أنقل بعضا مما قيل فى رثائه لضاق المجال!.

فإذا تركنا عصر أبى العلاء إلى ما بعده، وهو عصر التراجم التى تجمع كل ما يقال دون تمحيص، إذ كان من هم المترجم أن يحكى ما سمع ويروى ما قرأ وكل ما سمع من غريبة أو قرأ من عجيبة، أسرع إلى تدوينها تشويقا للقارئ واستمالة لوده، فى هذا العصر ساءت سمعة أبى العلاء بأقلام من كتبوا التاريخ من الوعاظ والسمار ورواة الأفاكيه من الإخباريين، وكلما جاءوا بالغريب كان لديهم أعجب وأطرب، وأى أعجوبة لديهم أطرب من القول بكفر أبى العلاء، واختلاق الأكاذيب عن مروقه ونشوزه! وقد ساعدهم على ذلك ما بدر منه فى النصف الأول من حياته من تجرؤ لا ينكر وقد رجع عنه! ولكنهم يأسفون لرجوعه فيتغاضون عما قال فى الإيمان والعقيدة مما يتفق مع الجمهرة وكأنهم يودون لو استمر على غلوائه فيجدون أديما عريضا لسهامهم الطائشة. وأقلامهم الشائنة، ولكن أقواله المؤمنة قد سدت عليهم كل سبيل! وقد نقل ابن الوردى عن الصاحب كمال الدين بن العديم قوله الذى يجب أن يكون مقطع الرأى عن أبى العلاء: «إنه اعتبر من ذم أبا العلاء ومن مدحه، فوجد كل من ذمه لم يره ولا صحبه،

وكل من لقيه هوالمادح له» وهذا القول هو الذى جعلنى أتحدث عن موقف معاصرى أبى العلاء منه وموقف من جاءوا بعده والموقفان متباعدان !

ولنترك الماضين إلى هذا العصر الراهن فإننا نجد اسم أبى العلاء قد بلغ من الدوى مبلغاً لم يحظ به غير الأفذاذ من أمثال المتنبى وأبى تمام وابن الرومى بل إن أبا العلاء قد فاقهم جميعا عند الباحثين فى الغرب، حيث ترجمت لهم روائعه فوجدوه الشاعر الوحيد بين شعراء العربية الذى تكلم بلسان العقل وحده فى شئون الاقتصاد والسياسة والاجتماع والعمران، وقد ألف الأستاذ عباس محمودالعقاد كتابة (رجعة أبى العلاء) مقارنا بين ماقاله.المعرى، وبين ماقاله فلاسفة أوروبا، وطار بالمعرى فى هذه الرجعة بين الشرق والغرب، ليعرض شتى الآراء الحديثة وشتى النظم الاجتماعية السياسة والاقتصادية مستشهدا بما يماثلها من آراء أبى العلاء وبخاصة في اللزوميات ! وكان الأستاذ الكبير أمين الريحانى قد ترجم إلى الإنجليزية خلاصة وافية من شعر أبى العلاء فى اللزوميات فبهرت القراء هناك، إذ كانوا لايعتقدون أن شاعرا عربيا بلغ هذا النضج

الفكرى فى عصره البعيد فسبق غيره من النظراء!

والمكتبة الأدبية المعاصرة حافلة بكتب قيمة خصصت لأبى العلاء ومنها الكتب الرائعة للأساتذة عبدالعزيز الميمنى وطه حسين، وأحمد تيمور، وسليم الجندى، ومارون عبود، وعباس العقاد، وأمين الخولى، وبنت الشاطىء، وكامل كيلانى، وعبدالله العلايلى، وأمجد الطرابلسى، وقد لا أستطيع حصر أسمائهم لضعف الذاكرة وتعاقب السنين، هذا إلى غير المؤتمرات الحافلة التى أقيمت للرجل فى عيده الألفى فى مصر والعراق والشام وسجلت عشرات البحوث الضافية عن الشاعر الكبير ولن أنسى كلمة رائعة قالها الدكتور عبدالوهاب عزام فى بحث له عن أبى العلاء، إذا قرر أن كل أديب عربى عرف فى هذا العصر كانت له فى حياته فترة علائية قضاها مستمتعا بآثار المعرى، وداعية له؛ لأن طرافة التفكير عند المعرى قد فاقت كل حد، وكان الشباب الناهض إليه أسرع، وبه أحفل، وقد صدق حين قال عن نفسه فى مطلع شبابه:

وقد طار ذكرى فى البلاد فمن لهم

بإخفاء شمس ضوءها متكامل!

مصرع شاعر بطل

تاريخ الأدب العربى يموج بشخصيات كثيرة تتراكم وتزدحم على مر العصور وقد حفلت كتب التراجم بأنباء هذه الشخصيات ولكن طريقة كتابتها قد ضاءلت كثيراً من بعض الجهود الفذة التى يمكن أن تكون نقطة ارتكاز لتسجيل بطولة نادرة أو التنبه إلى عبقرية رائعة، وعلى الباحثين أن يتركوا طرقهم المألوفة فى الإلمام السريع بالخطوط العريضة دون أن يتعمقوا ما وراءها من أسرار وبواعث، ليقدموا إلى الناس صورا حية ذات مقدرة وإبداع.

وسأتحدث اليوم عن شاعر بطل قدم روحه رخيصة فى سبيل مبدئه العربى النبيل، وكان بمصرعه المؤسف مثالا بارزا للصبر والاحتمال، وهو بتاريخه الحافل يصور جزءا من كفاح مصر العربية فى تحرير الشرق من أوهام الاستعمار الصليبى، وله فى ذلك نظراء وأمثال يعوزنا أن ننقب عن جهادهم الأبى ثم نجلوا أحاديث بطولتهم على الناس فى احتفاء وإجلال.

يظن بعض المؤرخين أن دور مصر فى الكفاح الصليبى قد ابتدأ حين وفدت جيوش نور الدين إلى الكنانة بقيادة أسدالدين شيركوه، وهذا خطأ صريح لأن مصر العربية المسلمة قد تجاوزت هذا الموعد إلى ما قبله بسنوات وسنوات، فقد أتيح لها وزير أبىٌ كفء يلتهب حماسة وحمية فأزعجه

أن تفد الجيوش الصليبية لتستحل مدن الشرق وتستبد بمقدسات العرب والمسلمين دون أن تكون عاصمة الفاطميين فى طليعة المدافعين، فسير الجيوش برا وبحرا إلى فلسطين وسوريا لمداهمة الغاصبين، وأحرز انتصارات هائلة، كان لها دويها الرنان فى آذان الأعداء وأريجها العطر فى صفحات التاريخ ودواوين الشعراء، ذلك الوزير الكفء الأبى هو الصالح طلائع بن زريك، وقد لقب بأبى الغارات لكثرة حملاته المتعاقبة على الأعداء!.

كان الوزير - على شجاعته الماهرة وإدارته الحازمة - كاتبا شاعرا يهش للأدباء ويجمعهم حوله فتألقت فى عصره نجوم كثيرة من أفذاذ الكتاب وبارعى الشعراء، حتى أن العماد الأصفهانى فى كتابه: «الخريدة» قد أدار جل تراجمه على الوزير وأشياعه، فأكثر من تحدث عنهم من الأدباء كانوا ممن يلوذون تجاهه ويستعينون بخيره، وقد أفردت كتب خاصة بتسجيل مآثره، ولو أتيح له أن يعمر فى الوزارة طويلا لقاد الكنانة إلى النصر السريع ولكفى التاريخ جهودا شاقة قام بها فى إثره أبطال هذه الحرب الطاحنة ذات الحملات السبع!!

ومهما قيل فى فضل الرجل على الأدب والشعر فإن أكبر

فضله في ميزان التاريخ هو ما أشعله من الحماسة المتأججة فى النفوس، فقد أعلن التعبئة العامة فى مصر وهيأ الأذهان إلى خطر هؤلاء الغزاة العتاة، ودعا الشعراء إلى خوض المعركة، فأخذوا يصورون ما يتوقع للإسلام من مآزق لو علت راية الصليبيين فى البقاع، وكان إذا رجع من بعض الغزوات الظافرة جلس فى حفلات الاستقبال يستمع إلى قصائد الحرب وترانيم الشجاعة، حتى أصبح القول فى الغزو الصليبى موضوعا جليل الخطر قوى الصلة بنفوس الشعراء، ولعل المهذب بن الزبير كان أعظم من صور وقائع ابن زريك من مادحيه فقد أكثر وأطال فى إجادة وامتاع، بل إن الوزير نفسه قد أطلق قصائده الحماسية فى هذا المجال حين أخذ يرسل إلى نور الدين محمود توسلاته الصادقه أن يقف إلى جانبه، ولم يكن نور الدين فى حاجة إلى من يتوسل إليه، وهو البطل المثالى الشجاع، ولكن اختلاف وجهات النظر بين البطلين فى شأن المعاهدات الحربية والهدنة المتكررة كان مجال المؤاخذة والمجاذبة! ولكل بطل منحاه فربما اقتضت حوادث القتال فى الجنوب ما لا تقتضيه فى الشمال، وكم يرى الشاهد ما لا يرى الغائب من مخاطرات.

هذه الروح المتحمسة التى بثها الوزير طلائع بن زريك قد

وجدت صداها لدى شاعر كبير مرموق هو الرشيد أحمد بن الزبير الغساني فأخلص للفكرة الإسلامية إخلاص الأبى الغيور، وظل بشعره ونثره تارة وسيفه وكفه تارات يعمل على مناجزة الصليبيين فى كل مجال حتى قدم روحه رخيصة فى ذات الله وارتفع إلى ذروة الشهداء لقد كان من نكد الطالع على البلاد أن يتولى الوزارة بعد موت الصالح، وقتل العادل رجل انتهازى ماكر، لا يفكر فى غير نفسه، هو شاور ابن جير، فلم يجعل من همه أن يستأصل شأفة الفرنجة من الشرق بل جعل تمكنه من الوزارة مأربه الأوحد سالكا أقذر المسالك التى يستعين بها على السيطرة والحكم، فأغضب الصغير والكبير، وقد استطاع أن يلبس الحق بالباطل حينا فى أنظار السذج من العامة، ولكنه افتضح افتضاحا مخزيا حين جد الجد وصرح الشر عن الطيب والخبيث.

لقد استنجد بنورالدين بادئ ذى بدء متظاهرا بالغيرة والحمية، والحرص الأكيد على استئصال الفرنجة فما كادت جيوش نور الدين تتقدم إلى بلبيس حتى استعان عليهم بالفرنجة وأجبر عساكره وأتباعه على محاربة ذوى دينه ممن جاء بهم لحماية الإسلام فى مصر، وكانت غضبة الشعب عليه شديدة عنيفة إذ أن المجاهدين من ذوى الأنفة قد التجئوا

إلى أسد الدين ووقفوا معه صفا واحدا أمام الوزير الخائن وسادته الدخلاء وكان الرشيد الأسوانى أحد هؤلاء الذين أشعلوا نار الحمية فى النفوس وهاجموا الطاغية المستبد هجوما زعزع مكانته حتى نجا أسد الدين ورجع إلى الشام، ولكن إلى حين.

أخذ شاور يبحث عن هؤلاء الذين ألبوا الشعب عليه، فوقعت فى يده كتب خطها الرشيد بن الزبير إلى أصحابه المتفرقين فى ربوع البلاد يدعوهم إلى الثورة على الوزير الخائن، ومعاضدة جيش نور الدين فى مأزقه، فهو جيش العرب والمسلمين، ولن تقوم لمصر قائمة إذا انخذلت هذه الكتائب المكافحة، وقد تركت ربوعها فى الشام، وخفت إلى مصر لتلقى المعونة والتأييد ليحاربها الأوغاد بسلاح الغدر والخيانة ممن لا يشعرون بيقظة الإيمان ومحاسبة الضمير وكانت العبارات النارية التى خطها الرشيد مما يشعل النفوس حفيظة وحقدا فثارت ثائرة شاور على الشاعر وأخذ يبحث عنه فى كل مكان فلم يهتد إليه، ثم عثر على شقيقه المهذب فحبسه وسامه سوء العذاب فى سجنه إذ كان ولاءه للجيش العربى مما لايخفى على أحد فاهتبلها الخائن الباطش فرصة مواتية ليشفى نفسه قليلا منه ومن أخيه!!

لم يكن الرشيد بالرجل السهل حتى يعثر عليه شاور فى وقت قريب، بل كان حذراً لبقاً فى اختفائه، ولا غرو فالشاعر داهية محنك جاب البلاد، وجاوز مصر إلى اليمن فى سفارات سياسية كثيرة، وهو بعد منجم فقيه فلكى طبيب مهندس وله فى كل مكان يؤمه تلاميذ يقدرون علمه ويعرفون مكانه، فهم أحرص الناس على حياته، هذا غير ما نعلمه من حب الناس لأبطال الحرية ودعاتها، وقد اشتهر الرشيد بثورته على شاور فحل بذلك محل الإجلال والتقدير، وكأنى به وقد أصبح فى تنكره موقد ثورة، يشعل اللهيب فى كل مكان يؤمه وهو بذلك يؤدى رسالة قوية أتاحها له شاور من حيث لا يريد، فلو تركه وشأنه ما كان لاختفائه هذا النفاذ الغريب، وقد رجعت عيون الوزير إليه خائبة فاشلة تعلن يأسها من العثور عليه، فيتوعد ويهيج!

على أن المهذب أخا الرشيد قد استطاع أن يتوجه من محبسه بقصائده إلى شجاع بن شاور راجيا أن يستعطف قلب أبيه، فيمن عليه بالحرية، وكان فى شجاع همة ومروءة، فهو على نقيض أبيه، يسوءه أن يتورط والده فى مخالفة الفرنجة فيبذل أقصى الجهود ليوحد الجبهة العربية، وكم تعاظمه أن تصبح صورة أبيه شائهة ممسوخة لدى الناس، حتى أنه جاهر

بمخالفته في أحرج مآزقه مؤثرا عزة البلاد واندحار الصليبيين مهما قذفت الحوادث بأبيه إلى الهاوية، هذا النجل الباسل كان يعطف على ضحايا شاور من المتحمسين البسلاء الذين وقفوا في وجه مكايده اللئيمة !! فحين التجأ إليه المهذب سعى في خلاصه وبذل جهده الجاهد حتى رد عليه هدوءه وأمنه، فخرج إلى فضاء الحرية مع المنتصرين، كما بذل مسعاه في الكف عن الشاعر الطريد، ولكن حقد شاور على الرشيد قد أحبط رجاء شجاع فظل هائما تتقاذفه القرى والمدن حتى حتمت عليه الكوارث الغاشية أن ينهي اختفاءه ليظهر في ميدان البطولة من جديد، لقد كان الرشيد يوقن أن الفرنجة يطمعون في مصر وأنهم لن يتخلوا عن زمامها متى أتيح لهم أن يتمكنوا منه وقد وجدوا في شاور مركباً يعتلونه إلى أغراضهم الآثمة، فيمضي بهم حيث يبتغون ، ونور الدين بالشام لا يقر قراره فهو حريص أن ينقذ بلاد الإسلام عامة من شرور هؤلاء الغاصبين لذلك أسرع بكتائبه إلى الميدان من جديد، وظهر أسد الدين مرة ثانية ليعمل على تطهير البلاد من الصليبيين، فدارت الحرب العنيفة بين شاور والفرنجة من ناحية وبين أسد الدين وأبناء البلاد من ناحية ثانية حتى تمكن الجيش الإسلامي من الاستيلاء على الجيزة وتقدم إلى الصعيد

فقابله الشعب المصرى بالترحيب ثم انثنت بعض كتائبه إلى الإسكندرية فكان صلاح الدين بطلها المعلا، وقد خاف شاور أن يصبح الثغر ركيزة هامة لجيش نور الدين فانكفأ مع سادته الفرنجة إلى محاصرته، وفوجئ صلاح الدين بالحصار فاجتمع حوله الشعب الاسكندرى، وظهر الرشيد فجأة فى الميدان فكان وهو القاضى العالم الشيخ! يركب الجواد ويمتشق السيف ويحارب بين يديه فإذا أظلم الليل اتجه إلى المساجد فجعلها منبراً للدعاية وأخذ يجمع القلوب حول صلاح الدين ويذكر من آيات وأحاديث القتال ما يزكى الحمية فى القلوب، حتى استطاعت الإسكندرية بصيحاته الجريئة أن تكون على قلب رجل واحد مع صلاح الدين! وكان هذا الموقف البارز للشاعر حلقة جديدة تضاف إلى سلسلة بطولاته الرائعة، فقر عينا بجهاده واستشعر برد الراحة حين رأى نفسه فى طليعة الصفوف مع المجاهدين وأخذ يتطلع إلى يوم قريب تنجاب فيه عن الإسلام ظلمات الغرب ودواهيه.. دارت الأيام، واضطر جيش أسد الدين إلى مغادرة البلاد مع الفرنجة مراعاة لاتفاق أريد به إنقاذ الموقف مما يتعاوره من جواذب الدفاع والهجوم.. وخلا الميدان برهة مؤقتة لشاور بن مجير وقد جاءه ما قام به الرشيد من بطولة خارقة فى حرب

الإسكندرية، فوجه اهتماه إلى القبض عليه وأعلن الجوائز الغالية لمن يقوده إليه، وكأن الأقدار شاءت للشاعر أن ينهى كفاحه الباسل، فيساق إلى الوزير الحاقد فأمر بإشهاره على جمل ووضع على رأسه طرطوراً ظنه مدعاة السخر والهزأة من الناس ووراءه شرطي يضربه بالعصا وينال من وجهه باللطم وقفاه بالصفع، والشاعر يتمتم بالقرآن ويردد الشهادة فى حسرة كظيمة! قال ياقوت: فلما وصل به إلى الشناقة جعل يقول لمن سيقوم بإعدامه عجل، لا رغبة للكريم فى الحياة بعد هذه الحال ثم صلب أياماً، ووريت جثته فى التراب حيث صلب، وكان من انتقام الأقدار أن يصرع شاور بعد أمد قليل ويدفن حيث دفن الرشيد وشتان بين مصرعين يفضي أحدهما بصاحبه إلى دار السلام ويقذف به الآخر إلى هاوية السعير، تلك بطولة رائعة لها نظائرها - لا محالة- فيما نقرؤه من كتب التراجم الأدبية، وهأنذا أشير إليها لتنفعنا الآن فى معركة القومية العربية، آملا أن يتجرد فريق من أدبائنا لكتابة روائع هؤلاء الأبطال كتابة فنية توضح مشاهد البطل ومواقفه وتلقى الظلال على ملامحه وسماته مستشفة خلجات السرائر ونبضات الدم ليكون من ذلك كله سجل رائع للأمجاد العربية، وإلياذة

رائعة للبطولة والأبطال، وإلا فكيف يجوز لنا أن نهتم مثلا بشاعر معاصر للرشيد كابن قلاقس فنعرض مناحي أدبه ونفصل أغراض شعره وعناصر أسلوبه ثم نغفل الرشيد الأسواني مع أن ابن قلاقس قد ضعف عن أن يقوم بجهد ما في معركة الحروب الصليبية، بل أخذ يمدح شاور بن مجير ويذم أسد الدين في قصائد توحي بالوصولية المحترقة، والانتهازية الخسيسة. ولئن جاز في مضمار البحث الأدبي أن يخلد شعر ابن قلاقس وتتنوع دارساته فمن الواجب أن نفصل حيوات الرشيد والمهذب والعماد وأضرابهم ممن أسهموا أدباً وعملا في إفادة القومية العربية وإذكاء الشعور الديني.

ويمكننا أن نحكم على الرشيد بعد أن أوضحنا موقفه البطولي الرائع بأنه كان شاعراً قاضياً عالماً كاتباً وقد جره تنوع معارفه واختلاف ثماره إلى الإقلال من النظم، حيث تفوق عليه أخوه في شعره مما جعل نقاد عصره يقولون الرشيد أعلم من المهذب والمهذب أشعر منه. على أن عزة نفسه تظهر بوضوح في أكثر من نظم، كأن يقول:

إذا ما نَبَتْ بالحر دارٌ بودها
ولم يرتحل عنها فليس بذى حزم

وهبــه بهــا صــبــا ألم يدر أنه

سـيـزعـجـه منهـا الحـمـام على رغم

وله مع أخيه مصارحات رائعة، فقد أرسل إليه المهذب حين كان مغتربا باليمن قصيدة رائعة كان مطلعها:

يا ربع أين ترى الأحــبــة يمــمــوا

هل أنجـدوا من بعــدنا أو اتـهــمـوا

فرد عليه بقصيدة مماثلة كان ابتداؤها:

رحلوا فــلا خلت المنـازل منهــمــو

ونأوا فـلا سلت الجـوانح عنهـمـو

وفى القصـيـدتين مجال بديع للموازنة والتحليل وأقرب مرجع لهما ياقوت فليقرأهما من يرى فى أدب هذا العصر بعض الاستمتاع.

من صفحات التاريخ

إنصاف السهروردي الشهيد

أجل، هو الفيلسوف الشاب الشهيد وقد خاف أعداؤه أن يسجل له التاريخ استشهاده العظيم، فهبوا يصفونه، بالفيلسوف القتيل! كيلا يكون مصرعه المثير مثلا للبطولة الخارقة، والعزيمة الأبية ولكن هيهات! فقد ذهب خصومه زبداً رابياً فى خضم الزمن، ومن بقيت له آثاره من حديث تُلاك سيرته مشفوعة بالاستغفار، أما الرجل فقد نزل من قمم التاريخ فى ذروة سامقة ينظر الناس إلى علوها الشاهق، من سفوحهم المتطامنة، فيروعهم. هذا الارتفاع البعيد، ويقارنون بين مكانته السالفة فى دنيا الرعاع ومنزلته اللاحقة فى رحاب الزمن، فيعلمون أن التاريخ ناقد بصير لا تخذعه الأراجيف الموهومة بل يزن الناس متجرداً من حزازة المنافسة وغلواء الغيرة، ثم يهيئ لكل موضعه اللائق بموهبته وكفايته.

وقد علا مكان الفيلسوف من التاريخ بحيث تنحنى له الرءوس خاشعة فى محراب الألمعية المتوقدة، والنبوغ الوهاج، بل إن مصرعه الفاجع قد أضفى على سيرته لألاء ساطعاً وغمر آثاره العلمية بعبير منعش يسرى فى الأرواح الظامئة مسرى السلاف في الأعطاف. لقد كانت مواهب الفيلسوف مثار الروعة والعجب ولم لا؟ وقد رزق ذهنا

لماحا أدرك به علوما كثيرة متنوعة فخاض فى الفلسفة والأصول وعالج مسائل الطب والكيمياء والجبر، كما أوتى لساناً طلقاً ساحراً بارع الحجة قوى الدليل، وترك من المؤلفات- على قصر عمره- مباحث كثيرة تشرح أدق المسائل وتتخذ من الفلسفة والتصوف وعلم الكلام سبلاً مختلفة للحديث، ولو بسط له فى العيش لاحتل فى مجال التفكير الإنسانى قاطبة مكان القادة الموجهين، ولكن مصباحه المتوهج قد انطفأ فجأة فخبا الضوء اللامع وغاب الشعاع النفاذ!

لقد انطفأ المصباح المتوهج عقب مأساة حزينة، هى مأساة المفكر الحى المتوثب، يسير إنتاجه فى الكون مسير الشمس، فيعشى العيون ويثير كوامن الحقد فى نفوس لا تقدر مواهب الله فى مخلوقاته، فتتجمع وتتكتل لتقذف التهم الآثمة، وتعدد المفتريات المجحفة، ثم تتحشد وتتواثب لتقيم قيامة العامة، ويموج الحشد الأبله فى مظاهرة صاخبة، فيثير الاضطراب والبلبلة، ويقيم الدنيا ويقعدها على رأس المفكر الحى الواثب، ثم تحين المأساة فيجازى الرجل بما يجازى به القتلة من المجرمين والفجرة من المتوحشين!! وإذا ذاك تهدأ العاصفة، وينطفئ الحقد

المتوقد، ثم يتعاظم الصغار المهازيل ويشمخون!! بعد أن خلا الميدان العلمي من فارسه المحجل، وبطله العظيم.

وقداعتدنا أن نسمع من الكاتبين، كثيراً عن استشهاد الفيلسوف الكبير سقراط، وما قوبل به من خيانة وعقوق فهم يسوقونه مثلاً رائعاً للمفكر الحر، ويذكرون كيف قضى ليلته الأخيرة في جدل علمي ماتع حول الروح والخلود والنعيم.

ومن يدرس استشهاد السهروردي يره سقراط آخر، يقدم على الموت ببسالة فلا يأسى على انطفاء مصباحه ونضوب معينه في عنفوان الشباب، ومقتبل الحياة مع أن الفيلسوف الإغريقي قد جاوز السبعين، ورأى في عمره المديد ما بغض إليه الحياة والأحياء، أما استخفاف السهروردي بالموت في نضارة العمر وربيع الشباب فمثل رائع لا يقاس بنظير، إذا قورن بما كان يرتجى منه في ميدان النبوغ المبكر، وإذا درست شخصيته النادرة من خلال مؤلفاته، فعلم ما كان يزدحم في صدره من آمال مورقة، تقصفت أعوادها وبترت سيقانها، تحت إعصار رهيب من الظلم والجحود!!

نشأ يحيى بن حبيش السهروردي ببلدة من أعمال

أذربيجان، بعراق العجم، وقد شب طموحا للمعرفة، مشغوفاً بالدراسة والتحليل، فتلقي العلم «بالمراغة» ودرس الحكمة والفقه على أستاذه العظيم مجدالدين الجبلى، الفقيه الأصولى المتكلم أستاذ الفخر الرازى، فانتفع بكثير من آرائه وتوجيهه ودرس معه العلوم النقلية دراسة شاملة ولكنه تطلع إلى الفلسفة والمنطق، فضاقت المراغة بطموحه ولم يعد أستاذه يشبع نهمه العقلى الطامح فارتحل إلى أصبهان يبحث عن أساتذة المنطق، وينتقل فى حلقات الفلسفة حتى انفتق نبوغه عن ذهن متألق وضاء، فأعجب به أستاذه «الطهير الفارسى» واختصه بأسراره، فقرأ عليه كتاب البصائر فى المنطق، وترجم رسالة الطير إلى اللسان الفارسى!

وامتزجت فى تفكيره دراسة العلوم النقلية بالعقلية معاً فخلقت منه فيلسوفاً من طراز خاص، كما كان للتأمل الباطنى والاستشفاف الروحى أمواج ثائره تصطخب فى خاطره فخلط الفلسفة بالتصوف، وبنى مذهبه الصوفى على نظرية «الإشراق» اليونانية وقد توسع كثيرا فرجع بتصوفه إلى عناصر أجنبية تتضمن لقاحاً متشعب المنحى والاتجاه، وانتشر له دوى فى مجتمعه، فخطب وتصوف

وتفلسف، ونظم الشعر وخاض في الجدل والفقه الأصول، وأصبح بثقافته الواسعة يمثل جيلاً كاملاً من العلماء!!

وقد ضاقت أصبهان بالرجل أيضاً!! فرحل إلى حلب تسبقه شهرته الواسعة ومؤلفاته العديدة، فعرف فضله عالم كبير من جلة علمائها هو الشيخ افتخار الدين شيخ المدرسة العلمية بها، فقربه واجتباه ونقل إلى الملك الظاهر مديحه وإطراءه، فاتصل به السهروردى، وتوثقت الصلة بين السلطان والفيلسوف ، فأضافت إلى مجده العلمى مجداً آخر.

ونحن نعلم أن مؤلفى الفلسفة يقفون كثيراً موقف المؤرخين فيسجلون فى مؤلفاتهم ما سبق تداوله من الآراء حقاً كان أو باطلاً، ليحفظوا التراث الفلسفى من ناحية، وليراقبوا تطوره العقلى من ناحية ثانية، وقد يكون بعض هذا التراث باطلاً يظهر تهافته، ولكنه إحدى حلقات البحث الفلسفى، وله ثقله الهام فى ميزان التطور المذهبى. ومؤلف فيلسوف كالسهروردى لابد أن يذكر بعض هذه الفلسفات التى تناقض الدين لتأخذ مكانها الزمنى فى بحثه واستنتاجه، وقد يعقب عليها بالنقض والتجريح، وقد يدعها تصيح بفسادها الواضح فى أذن

القارئ البصير !! وهنا مربض الخطر، ومكان الانتقام، فقد تصيد المغرضون من آراء الفلاسفة ما ينهض بحجتهم في ملأ لا يفهمون النثر الأدبى، بله المنطق الفلسفى النظرى، ثم ذهبوا يوضحونه توضيحا يشهد بالإثم والعقوق، وقد تم لهم ما أرادوه، ووقف المفكر اللامع ينظر مدهوشاً إلى قطيع يساق ويتحدر إلى الصخب والجلبة دون تمييز صائب أو فقه بصير.

ونحن نتسائل فنقول: ما اللباب الأصيل لفلسفة الرجل، وعلى أى شئ بنى مذهبه الروحى؟ فإذا أردنا الجواب فلن نعالج بالبيان الأدبى مذهباً فلسفياً تجنى على حقائقه العلمية نصاعة الأسلوب وورنق الديباجة، ولكننا ننقل عن صاحب كشف الظنون حقيقة مذهب الرجل إذ يقول:

«إن للدين والفلسفة موضوعاً واحداً وهو الخير الأسمى، الذى هو فضيلة وسعادة معاً، ومعرفة هذا الخير الأسمى، تتضمن معرفة الله وصفاته وتنزيهه، وهذه المعرفة يمكن أن تحصل من طريقتين: إحداهما طريق النظر وثانيتهما: طريق الزهد والذوق الصوفى.

والذين يسلكون الطريق الثانى إذا كانوا يعتقدون

الإسلام ويستغلون تعاليمه على أوجه الاستغلال فهم الصوفية. أما إذا لم يكونوا كذلك، وكانوا يصطنعون الذوق، ويأتون في مذاهبهم بما يتنافى وأحكام الشرع فهم الإشراقيون».

هذه الآراء وأمثالها كانت شائعة معروفة في الأوساط العلمية، وقد جاهر كثير من المتصوفة في الإسلام بآراء كانت تثير مناقشات حامية بين الفقهاء والمتصوفة من ناحية نقلية، وبين المتكلمين والمتصوفة من ناحية عقلية، ولئن هوجم الشبلي والبسطامي وابن الفارض والجنيد وسهل التستري وأبو الحسن الشاذلي على اختلاف مشاربهم الصوفية، فقد كان لهم- مع خصومهم- أعوان يذبون عنهم ويحوطون مواقفهم بالمؤازرة، ولم يقتل من المتصوفة على كثرة شطحاتهم الغريبة غير عظيمين كبيرين، هما: الحلاج والسهروردي، وكلا الرجلين أعدم متهما بالكفر والمروق في منطق العامة والرؤساء ولكن التاريخ يذكر بأسانيده الثابتة أن الخداع السياسي مع الحلاج، والحقد الشخصي مع السهروردي كانا- وحدهما- الباعث على الاغتيال والإعدام، دون نظر إلى رأي شاذ، أو تصوف جامح شموس.

على أن السهروردى لم يعدم من أعوان الحق فقهاء يظاهرونه فى محنته إلا أن أصواتهم الخافتة قد تلاشت فى محيط يزخر بلجب العامة، وصيحات الرعاع، فتطايرت الأنباء إلى صلاح الدين الأيوبى بالقاهرة معلنة أن ولده الملك الظاهر قد اجتبى فيلسوفاً ملحداً زنديقاً ! وأن مظاهرات الاحتجاج تنهض بين الحين والآخر فى آفاق حلب، وأراد السلطان الغيور أن يطفئ اللهب المشتعل فأمر ولده بمحاكمة الفيلسوف وإبعاده وقد اطمأن الملك الظاهر إلى علم صاحبه وقوة منطقة، فأمر بتشكيل محكمة علمية.

وسار الفيلسوف إلى المحاكمة مرفوع الرأس موفور الثقة، وقد ظن أن النقاش سيدور فى مسألة شائكة، مما أثاره فى بعض كتبه الفلسفية كحكمة الإشراق أو هياكل النور أو المعارج، أو اللمحة أو المطارحات، أو المقامات أو الألواح إلى غير هذه الكنوز التى تضمنت أثمن ما وعاه العقل الإنسانى من معان، وقد سطرها صاحبها فى سن مبكرة فأدهش وراع ! ! هذه النفائس الخالدة التى تقف عقول الكثرة الكاثرة من المثقفين إزاءها كما يقف الطفل الصغير على ساحل محيط جياش اللج دفاق الموج. وقد

كان أعضاء المحاكم أطفالاً، فلم يخوضوا شبراً من المحيط، ولووا أعناقهم عن الموج الجائش والطوفان الغامر، وتناظروا فى مسألة هينة يكفى الفصل فيها بكلمات يسيرة، لو عدل الحاكم المغرض، فأنصف البرئ؟!

قال رئيس المحاكمة: لقد قلت فى بعض تصانيفك: إن الله قادر على أن يخلق نبياً وهذا مستحيل.

فقال السهروردى: لا حد لقوة الله فإن القادر إذا أراد شيئا لا يمتنع عليه.

قال الرئيس: إن الله قادر على كل شئ إلا على خلق نبى فيستحيل.

فأجاب الفيلسوف: أيستحيل الخلق مطلقاً أم لا؟

ومافاه المتهم بهذا السؤال حتى قامت عليه القيامة؟ وصاح الصائحون:

كفر الرجل كفر الزنديق!! مع أن توجيه السؤال يشعر بما يفض النزاع ويحسم الخلاف فالسهروردى يريد أن يقول إن إمكان الخلق جائز بالقوة لا بالفعل.

وهذا ما عناه بالإطلاق وعدمه، وَمَنْ يلم بقليل من علم المنطق يدرك أن خلق النبى بالقوة أمر لا جدل فيه، ولكن

هكذا تعشى العيون عن الصواب.

فأى نقاش هذا الذى يبدئون فيه ويعيدون؟ ثم يصدرون الحكم بإعدام الفيلسوف أو يحرصون على أن يوصف بالمقتول كيلا يتطرق استشهاده على ذهن يحاول الإنصاف.

لقد اضطر الملك الظاهر إلى تنفيذ الحكم طاعة لأمر والده، وترك الفيلسوف يختار ميتته بإرادته، فماذا صنع المسكين؟

لقد اختار أن تقفل عليه حجرته فى محبسه الدامس، ويترك بدون طعام أو شراب، حتى يموت صبراً فيهرأ الجوع والظمأ أحشاءه الطاوية بمثل الخناجر المسمومة ساعات أية ساعات.. فيالها من ميتة قاسية يختارها متصوف زاهد ألف المجاهدة والحرمان، وتدرب على الجوع والظمأ مرتفعاً بروحه فوق مطالب الجسد، ورغائب الغريزة، ليخلص من الشوائب والأثقال، لقد اختار سقراط قبله السم العاجل ليلفظ أنفاسه فى لحظات، أما السهروردى فقد آثر أن يتعذب عذاباً بطيئاً يمتد أيام وليال فيصل إلى مثله الأعلى وقد خلع عنه أوضاره المهلكات.

لقد حاول الفقهاء تشويه عقيدته -في مباحثهم- بعد مصرعه ولكنه وجد من التاريخ إنصافاً حميداً، فها هو ذا صاحب روضات الجنبات يقول عنه:

«الشيخ المعظم، والفيلسوف المكرم، العالم الربانى، والمتأله الروحانى، كان فى المكاشفات الربانية أمة، والمشاهدات الروحانية نهاية.

كما يقول صاحب «طبقات الأطباء» عنه: كان أوحد زمانه فى العلوم والحكمة جامعاً للعلوم الفلسفية، بارعاً فى الأصول الفقهية، مفرط الذكاء، فصيح العبارة، ولكن كان علمه أكثر من عقله».

ويقول ياقوت: «كان السهروردى فقيهاً أصولياً أديباً شاعراً، حكيماً نظاراً، ولم يناظر مناظراً إلا أفحمه.

وقد أخذ حظاً وافراً من دراسة المستشرقين، فعرضوا مضايق حياته وحللوا عناصر مذهبه، وناقشوا مقدمات فلسفته، ولكن بعضهم يسير بالفروض المحتملة إلى غاية مخطئة، فيزعم «فون كريمر» و«هورتن» أن الرجل كان يعتنق المذهب الباطنى بدليل قوله فى مقدمة حكمة الإشراق: «العالم ما خلا قط عن الحكمة وعن شخص قائم بها، عنده الحجج والبينات».

ونحن نرى أن هذا الزعم لا يستند إلى دليل صحيح، فلو كان الرجل باطنياً لما احتاج الفقهاء إلى تأليب الجمهور عليه في زمان صلاح الدين الذى تعقب الباطنيين تعقباً ماحقاً. بل كانت باطنيته- إن صحت- سبباً هيناً في استئصال شأفته دون مناظرة ومحاكمة وجدل، ولم نسمع أحدا من الفقهاء قد اتهمه بذلك، أما هذا النص المأخوذ من كتابه فلا يعني غير اتصال الأبحاث الفكرية والحقائق الخالدة وانتقالها من جيل إلى جيل على يد العلماء، وهو بذلك يقصد نفسه مع من سبقه من الفلاسفة، من لون سقراط، فكيف نحمل على الرجل ادعاءات جديدة!! غير ما وجه إليه من افتراء.

لقد كان الفيسلوف متعالياً متعاظماً وهذا مجال النقد في خلقه، ولعله قاس معاصريه من الفقهاء بمقياس اطلاعه، فلم يلووا على شئ!! وما ورد عنه من قول للآمدى: «لقد رأيت في المنام كأني شربت ماء البحر كله أو ملكت الأرض» فلا يخرج عن المجاز الدال على سعة العلم، وغزارة المادة. وللصوفية في كل العصور رموز مبهمة، وإشارات غامضة تتطلب الإيضاح، إذ يذهبون مع الألفاظ مذهباً لا يقتضيه مدلولها اللغوى الصريح لا سيما

فيما يتعلق بالذات العلية، حيث تتجه سهام النقد والتجريح. وقد قال شيخ الإسلام زكريا الأنصارى الشافعى فى فتواه عن عقيدة ابن الفارض: «يحمل كلام هذا العارف - رحمه لله ونفع ببركاته- على اصطلاح أهل طريقته، إذ أن اللفظ المصطلح عليه حقيقة فى معناه الإصطلاحى مجاز فى غيره كما هو مقرر فى محله، ولا ينظر إلى ما يوهمه تعبيره فى أبيات التائية من القول بالحلول والاتحاد، فإنه ليس من ذلك فى شئ!! وهذا يصدر عن العارف إذا استغرق فى بحر التوحيد والعرفان! بحيث تضمحل ذاته فى ذاته، وصفاته فى صفاته، ويغيب عما سواه».

ونحن نقول هل يسع عمر بن الفارض ما لا يسع السهروردى، فيعترف للأول بالإمامة الروحية، ويتوافد الملوك والسلاطين على موكبه، بينما يلاقى الثانى حتفه فى ظلمات الجحود والكفران، وإذا جاز ذلك فى قوم ملأت قلوبهم الحزازات والأحقاد، أفيجوز أن ينتقل إلى باحات التاريخ!! وهو الذى يقوم المعوج، ويمحص الحق ويدحض الأكاذيب!!.

إنصاف بطل باسل

محمد كريم

كان تداعي المعاني وحده صاحب الفضل في تحرير هذا البحث، فقد كنت أقرأ الجزء الثاني من كتاب «منوعات» الذي أخرجه الدكتور العالم محمد كامل حسين، ورأيته في ص٤٤ يتحدث عن الأستاذ أحمد حافظ عوض حين شغل كرسيه عضوا في مجمع اللغة العربية بعد وفاته فيقول: «إذا كان الأستاذ حافظ عوض قد شب في عصر لا يعد خير عصور الحياة الفكرية في مصر، وإذا كانت آثاره الأدبية - وهي وحدها التي تعنينا هنا - لا تخلو مما يدل على كثير من صفات ذلك العهد، فإن ذلك لا يعد عيباً فيه ولا نقصا، فحسب المرء أن تكون آثاره في ميدان الفكر صورة صادقة واضحة للعصر الذي يعيش فيه، وأن آثار سلفي لكذلك، فهي صورة للعصر الذي شب فيه، لا الذي انتهى إليه، فيها تخبط الذين يلتمسون أسلوباً جديداً، وتعثر الذين يتحسسون منهجاً غير مألوف».

قرأت هذا الكلام فسبق ذهني فجأة إلى كتاب فتح مصر الحديث الذي أصدره أحمد حافظ عوض سنة ١٩٥٢ عن حملة نابليون على مصر، واحتفلت به الدوائر الصحفية والأدبية احتلافا يناسب مركز مؤلفه كرجل سياسة وصحافة وأدب! حتى قال فيه أحمد شوقي قصيدة رنانة يوم كان

شعراء مصر يظنون تقريظ الكتب إحدى موضوعات الشعر، فهو شبيه بزيارة الخديوى مدينة طنطا أو افتتاح ملجأ الأيتام مثلا! هذا الكتاب قرأته قديما، ولمست فيه تحليلا شاملا لبعض الغوامض الخافية في تاريخنا القريب، كما لمست فيه أيضاً اندفاعاً متطرفاً في بعض الأحكام الجائرة، ولا أدرى لماذا تذكرت السيد محمد كريم محافظ الاسكندرية حينئذ بالذات، فقد كان أحد الأبطال المخلصين الذين قسا عليهم المؤلف الكبير دون موجب، فلا يكاد يمر حديثه حتى يشويه الكاتب بسياطه، حتى موقف استشهاده البطولي كان مثار هزء بالرجل وهو بعد جدير بالتقدير والإجلال وقد يدهشك أن تجد أحمد حافظ عوض يقول في أول حديث له عن السيد محمد كريم هذه السطور ص٩٧: «إلا أنه لما أنزلت الجنود الفرنسية في البر ليلاً، في تلك الليلة القمراء أسرع بدوى على فرسه بالسير إلى الإسكندرية وأبلغ السيد محمد كريم.. ومن يدرى كيف كان وأين كان في تلك الساعة مع سراريه وإخوانه على نحو ما ألف أهل ذلك الزمن من الترف والنعيم واللغو..»

ولا أدرى كيف حكم حافظ عوض على الرجل بهذا الترف الماجن العابث، المتقلب بين الجوارى والغلمان! وهو بعد لم

يكن والياً تركياً، أو أحد أمراء المماليك لعهده ممن اشتهروا بالترف الخليع! ولكنه رجل شعبى ترقى بكدحه وعرقه حتى وصل إلى ما لم يصل إليه مصرى مضطهد مسكين!

ثم تحين مناسبة أخرى يقف فيها السيد محمد كريم موقفا بطولياً إذ يتصل بالقاهرة ليخبر أولى الأمر بتحركات الفرنسيين، ويدعوا المماليك إلى استرداد الإسكندرية، وهذا عمل شهم من شجاع وطنى يسوءه أن تتفرق الجهود فلا تتجمع على محاربة العدو الغازى الفاتح! ولكن مؤلف الكتاب وحده يراه عملاً دنيئا!! إذ لا يجوز لمحمد كريم أن يخرج على نابليون بعد أن تلطف به وأبقاه حاكماً على المدينة وأنت تدهش كثيراً حين تجد أن أحمد حافظ يقول ص١١٤:

«ولكن السيد محمد كريم هذا على الرغم من هذه المعاملة الحسنة وتلطف نابيلون فى مخاطبته وثقته به، لم يحفظ للفرنسيين حرمة ولم يرع لهم عهداً وكان كعادة أبناء جنسه وزمنه وكعادة أبناء وطنه إلى وقتنا هذا لا يثبتون على رأى واحد، إذ بينما هم مع هؤلاء إذ هم مع أولئك وعذرهم فى هذا قصر نظرهم من جهة، وخوفهم من التقلبات من جهة أخرى زيادة عما ربوا عليه من أثر الذلة والمسكنة وضعف

الإرادة، قد وجد الفرنسيون معه بعد ذلك مكاتبات بعث بها من وراء ظهورهم إلى مراد يحرضه على الغارة على الإسكندرية».

وإلى الله أشكو هذا المنطق! فلو كان الرجل يهتم بنفسه لا بوطنه لفضل الوقوف بجانب نابيلون بعد أن تلطف وأبقاه محافظاً كما كان! ولكنه يأبى أن يكون ساعدا للبغي وظهيراً للعدو، فيكون ذلك مدعاة لوم وتقريع من مؤلف الكتاب يصلان به إلى اللعنة والسباب!.

ويسير المؤلف على منواله هذا فإذا تعرض لنهاية البطل وقد رزق الشهادة فى حومة البطولة الشريفة أبى إلا أن يهجنه ويزدريه فيختار أضعف الروايات الباطلة ويعلن أنه أخذ فى ساعاته الأخيرة يتوسل ويتزلف ويقول لمشايخ الأزهر اشترونى يا مسلمين!

ثم ينحى باللائمة على من أعجب بالبطل من الكتاب الإنجليز فيقول ص٢١٨: «ولصاحبنا المرحوم الحاج عبدالله براون الإنجليزى المستشرق فى كتابه «بونابرت فى مصر» إعجاباً بالسيد محمد كريم وقال عنه أنه أبى دفع الفدية ومات شهيداً مقداماً وما أدرى علام اعتمد فى هذه الرواية ومصدره الوحيد فى هذا الجبرتى وهو

يقول إنه تذلل وقال : اشترونى يا مسلمين ! ».

وإذا كان الأستاذ أحمد حافظ عوض لا يدرى علام اعتمد المستشرق الإنجليزى فى قوله، فإن مؤرخ مصر الكبير الأستاذ عبدالرحمن الرافعى يدرى ذلك فقد حكم فى هذا الموضوع حكماً عادلا حين استعرض الروايتين المختلفتين فى مقاله عن السيد محمد كريم بمجلة المجلة أكتوبر سنة ١٩٦٠ ! فقد ذكر ما رواه الجبرتى عن فزع كريم واضطرابه وما رواه «بوريين» سكرتير نابليون وريبو مؤلف التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية من ثبات الرجل وإبائه وقال بصدد ذلك ص١١ من المجلة : «ولو كانت رواية الجبرتى صحيحة لما فات الفرنسيين أن يذكروها.. ولما ذكروا رواية تشرف خصماً لهم حكموا بإعدامه، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن رواية روبين ترجح رواية الجبرتى، لأن الجبرتى لم يكن شاهد عيان لواقعة إعدام السيد « كريم» بل يغلب على الظن أنه كان منزويا فى بيته بالصنادقية فى ذلك اليوم العصيب ! أما المسيو بوريين فقد شهد الواقعة ويقول فى مذكراته أنه هو الذى أوعز إلى المسيو فانتور أن ينصح السيد محمد كريم بدفع الغرامة فأبى دفعها، فرواية بوريين كما ترى هى رواية شاهد عيان وهى أوعى إلى الثقة

وأقرب إلى الواقع من رواية الجبرتى».

ولعل القارئ بعد ما تقدم يحتاج إلى أن نعرض لتاريخ هذا البطل ببعض التفصيل ليعلم عن إنصاف وحيدة كيف مثل دوره الشجاع كأحسن ما يقوم به وطنى باسل أمين.

إن مما يشرف السيد محمد كريم أنه نشأ بالإسكندرية نشأة متواضعة فهو شعبى ينحدر من الطبقة المكافحة المناضلة وقد خاض غمار العيش مجاهداً فشق طريقه بين الأشواك والصخور، وامتهن الحرف الصغيرة درجة وراء درجة حتى صار «قبانيا» حاسبا يجمع بين الأرقام ويضبط الموازين، وزادته صناعته فهما لروح الشعب، وتقديراً لحالته الاجتماعية! وكانت له آمال ومطامح فعمل على أن يصل إليها مستعيناً بخبرته الطويلة! وتجاربه العديدة فى وطن ملىء بالمفاجآت!.

لقد كانت مصر نهباً مقسماً بين المماليك، يمتصون خيرها، ويعتصرون مجهودها، ويعيثون بجنودهم وأتباعهم بين أهليها، فيقتحمون المتاجر فى المدن ويصادرون الغلال والمحاصيل فى القرى فلا يدعون فلاحاً آمنا فى سربه، أو غنياً متمتعاً بخيره، وكان مراد بك من أعظم هؤلاء سطوة وشكيمة، فله من الحاشية والأتباع عدد هائل يرشحه

للصدارة ويدفعه إلى المجد كما يتصوره من أعنف طريق! فخاف الناس شره، وانضم إليه الكثيرون تخوفاً وحيطة! ورأى السيد محمد كريم أن يعمل فى دائرته الواسعة فأظهر نباهة واهتماماً ولمع اسمه فى محيطه لمعاناً قوياً.. فتسلطت عليه الأضواء واختير حاكماً للإسكندرية وقد تمكن فى منصبه المرموق أن يحفظ ميزان العدالة جهد طاقته، فإذا كان لا يمكنه أن يمنع عدوان الطغاة من المماليك فإنه كافح مكافحة طيبة فى سبيل توفير الرخاء، وإشاعة الطمأنينة والسلام، وإقامة العدالة بين الناس، وبهذه الأعمال الحميدة رزق محبة خالصة من القلوب، ورأى فيها الإسكندريون موئلا أميناً يصد عنهم هجمات الطوارئ ويذود عن بلدته قدر الطاقة كوارث الطغيان!

غير أن الأحوال السياسية لم تجر فى عهده على السنين المعهودة، فقد تعرضت مصر لغزو خارجى أقضَّ المضاجع وأرَّق الجنوب، وكانت الإسكندرية خط الدفاع الأول عن البلاد ففى موانئها وقفت البوارج الحربية تحمل الكثير من الجنود، والرهيب الفاتك من السلاح! وتعرض الثغر الوادع إلى أعنف عواصف الاستعمار فما تضعضع أو استكان بل قاده السيد محمد كريم إلى الحرية فى صلابة وإيمان!!

أفاقت الإسكندرية من نومها ذات يوم فرأت الأسطول الإنجليزى قد طوق الإسكندرية ببوارجه وجنوده، وسارع السيد محمد كريم إلى لقاء القائد «نلسن» فأفهمه الضابط الإنجليزى أن الفرنسيين سيحتلون البلاد عن قريب، وأنه موفد إلى تعقبهم واستئصالهم، وظنها السيد خدعة ماكرة، فرفض أن يصدق هذا الكلام وطالب القائد الإنجليزى بالانسحاب، ورفض أن يمده بالمؤونة والماء، وتحير الإنجليز فيما يصنعون! لقد كانوا يرغبون فى الإقامة بالإسكندرية حتى تمر البوارج الفرنسية الغازية فيتلاقى الفريقان فى شقة البحر الأبيض الواسعة! وهاهو ذا حاكم الإسكندرية ينذرهم بالعداء ويمنع عنهم الغذاء والماء مما يتعذر معه المقام! ولئن اشتبك مع الأهالى فى حرب فإنه سيكسب معاداة قوم لم يأت لمحاربتهم، وربما كانوا عونا للقوات الفرنسية القادمة فيما بعد.. هكذا فكر نلسن وقدر.. ومن ثم آثر التقهقر والانسحاب!

رحل الأسطول الإنجليزى... وكان الناس بين مصدق ومكذب لما زعمه من مجئ الفرنسيين، إلا أن السيد محمد كريم قد أخذ للأمر عدته فدعا الأهالى إلى حمل السلاح، واتصل بمراد بك وبالعرب الذين يلتفون حول الثغر، كما أمر

بتحصين المدينة، وإقامة المدافع وتهيئة الذخيرة والعتاد، وكان ما توقع الإنجليز أن يكون، فقد وفدت الحملة الفرنسية إلى الإسكندرية! يقودها أكبر قائد عرفته أوربا في القرن الثامن عشر، ووقف السيد محمد كريم وجها لوجه أمام القائد الفرنسي نابليون بونابرت!

ولو كان لمصر حظ مسعد في تلك الأيام لتأخر قدوم الأسطول قليلا حتى يلحق بغريمه الفرنسي. فتدور المعركة بين أجانب غرباء فوق سطح الماء دون أن يتعرض الناس لويلات مدمرة، ولكن المصريين لم يكونوا يفرقون بين الإنجليز والفرنسيين فكلهم أفرنج أجانب يتحدون ضد الشرق والسلطان! ولو كان السيد محمد كريم ذا خبرة بالسياسة الدولية في عصره لانتهز هذه الفرصة! ولكن الجهل المطبق بأمور أوربا الدولية قد كبد مصر خسائر فادحة! وعرضها لأعنف الزلازل والنكبات!

وقد كان رجال الحملة الفرنسية يعرفون كل شئ عن مصر، يعرفون أن جيشها أجنبى دخيل لا يحس بالعاطفة الوطنية نحو بلاده، ويعلمون أن أدوات الحرب لديها محدودة ضئيلة وهى على ضعفها المتهافت لا تقف لحظات أمام الأسلحة الحديثة وكان إلمام الفرنسيين بموقع الإسكندرية

ومكانتها الحربية صادقا فى حد ذاته، فقد أقام الرحالة الفرنسى فولتى بها مدة طويلة فعرف أماكن الضعف ورسم صورة خلابة للاستيلاء على البلاد من أقرب طريق، بل أكد للفرنسيين - كاذبا - أن المصريين يرحبون بهم، إذ أن الشعب فى اضطراب يائس وقلق مرير من جراء تعسف سياسة المماليك وطغيان الولاة، وتجاهل الدولة العثمانية، فهو يتوق للحرية والخلاص مترقبا «منقذه» الجرئ.

وقد صدق الرحالة فى تصويره مقدرة الشعب الحربية! ولكنه كذب فى زعمه أن المصريين سيرحبون بالفرنسيين ويرونهم معجزة الخلاص والإنقاذ، أجل صدق الرحالة حين قال عن الإسكندرية «ليس بالمدينة سوى أربعة مدافع فى حالة غير صالحة وليس بين الحامية من يمكنه إصابة المرمى بل جميعهم من العمال العاديين الذين لا يحسنون سوى «التدخين» ولكنه كذب فى دعواه الجريئة عن الشعب، فالمصريين - فى جميع عهودهم التاريخية - لم يرحبوا بأجنبى دخيل يدوس كرامة الوطن ويلوث نقاء ماء النيل!

وقدم نابليون مخدوع بما سمع! وتوهم أن المصريين سيصطفون على الطريق يهتفون بحياته ويعلنون ولاءهم للجمهورية الفرنسية، ولكن آماله قد انهارت حين وجد

الثورة الشعبية تقف فى وجهه، فالأهالى يتحصنون بالأسوار ويدفعون طلقاتهم الصائبة إلى البواخر وقد نادت فى نفوسهم عاطفة الكرامة والانتقام، لذلك أمر القائد الفرنسى بتطويق الإسكندرية ومحاصرتها من ثلاث جهات.

وإنك لتعجب بالبطولة الخارقة حين تسمع أن البطل الخالد (السيد محمد كريم) قد أصدر أوامره بمواجهة القوة الغاشمة واعتلاء الأسوار، فسارع فوقف فوق قلعة قايتباى وتلقى طلقات المدافع المنطلقة بثبات وشكيمة، وجاوبها بما يملك من ذخيرة، وجنود ورجاله من ورائه يصنعون صنيعه ويقتدون به حماسة وتضحية، وكانت موقعة حمراء بذل فيها المصريون جهودهم وذخائرهم وأرواحهم، ولكنها كانت محنة أليمة للفرنسيين فقد قوبلوا بهول عاصف وفزع شديد، ويكفى أن تعلم أن نابليون وكليبر ومينو، وثلاثتهم فى طليعة قواد الحملة بأسا وعزيمة وحيلة قد أصيبوا جميعا بشتى الطلقات فأصبحوا يضمدون جروحهم، البالغة، ولم ينتصر نابليون على الوطنيين إلا حين وجه قذائفه إلى الأسوار المتداعية فتهاوت متساقطة واقتحم المدينة بأسلحته وقذائفه، فما تراجع الأهالى عن موقفهم فى شئ، ولكن القوة الغاشمة تجبر من يقاومها على التراجع.

وليس عيبا أن تتقهقر بعد أن تنفد ذخيرتك ولكن العيب أن تعلن الاستسلام والخنوع بادئ ذى بدء فيلوكك المحتل لقمة سائغة، وهذا ما تحاشاه الوطنيون فلم يعلن السيد محمد كريم استسلامه إلا بعد أن فقدت الحامية كل عتاد، وأصبحت مواجهة الأعداء بدون سلاح ما، حماقة وعناء! وقد اعترف الفرنسيون أن الأهالى دافعوا عن الإسكندرية بحماسة عالية وثبات عظيم، حتى أفرغت ما تدخره من قوى متجمعة! وخلدت ببلائها الحميد موقفها فى رحاب التاريخ، وحين قبض نابليون على الموقف لم يشأ أن ينكل بالأحرار، بل ترك الفرصة سانحة للمسالمة والهدوء وأرسل منشوراته المتوالية يعلن إخلاصه للشعب المصرى واعتناقه الإسلام ويبين أنه جاء لمحاربة المماليك الذين استبدوا بالشعب، ومنعوا الفلاح عن كل خير، واتخذوه حيوانا يحرث ويزرع ويحصد، ولهم ما ينتج من ثمر، وما يدر من غلال، كما أنه قدر بطولة السيد محمد كريم وأمر بإبقائه حاكما على الإسكندرية وكان مما قاله له: «لقد أخذتك والسلاح فى يدك وكان لى أن أعاملك معاملة الأسير، ولكنك استبسلت فى الدفاع لذلك أعيد إليك سلاحك وآمل أن تبدى للجمهورية الفرنسية من الإخلاص ما كنت تبديه لحكومة سيئة».

ولنا أن نسأل هل ركن السيد محمد كريم لما سمعه من معسول الكلام، وما أعيد إليه من مناصب وألقى له من المقاليد؟! لا لقد كان يتزعم حركة المهاجمة الشعبية. ويجمع الثوار فيرسم لهم الخطط في مقاطعة الأعداء وإغلاق المتاجر والمصانع في وجوههم ومنع المؤن عنهم حتى الماء.. فلم يكونوا يعثرون عليه إلا بعد جهد جهيد، ولم يصدق الشعب يوما، ما زعمه له الفرنسيون من إخلاص، ومع أنهم قاموا بعدة إصلاحات ساعدت على تقدم البلاد إلا أن المصريين قاسوا أعمالهم بمقياس (الدين) فوجدوا فيما يفعلون خروجا على تعاليم الإسلام ورأوا في الحضارة الغربية بعداً شاسعاً عن تقاليد الشرق وميوله، فالفرنسي كما هو معهود عنه عاطفي يميل إلى اللهو ويولع بالخمر والنساء، والمصرى متدين يذم التبرج ويلزم حدود القرآن فيما يأخذ ويدع لذلك كان الفرنسيون يأتون مجونهم ويشربون خمورهم معتقدين أنهم لم يفعلوا منكراً يؤاخذون عليه، والشعب ينظر إليهم نظرة المغيظ المحنق، ويرى في جرائمهم فاحشة آثمة وعدوانا جريئا.

قال الجبرتى (لما حضر الفرنسيس إلى مصر ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون في الشوارع وهن حاسرات

الوجوه لا بسات الفستانات والمناديل الحريرية الملونة، وأسدلن على مناكبهن الطرح الكشميرى، والمزركشات المصبوغة ويركبن الحمير والخيول ويسوقونها سوقا عنيفا مع الضحك والقهقية ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة فمالت إليهم نفوس أهل الأهواء، من النساء الأسافل والفواحش وتداخلن معهم لخضوعهم للنساء وبذل الأموال لهن،، وليت شعرى إذا كان السفور ومداعبة المكارى جريمة دينية فكيف تكون الخمر والزنا، وما أتى به المحتلون من الفواحش فى رأى الشعب الغيور.

وقد وقعت عدة اعتداءات من الأهالى على الجنود، واشتبك الفريقان فى قتال متقطع، تلوح بوادره وتختفى فى فترات متباعدة، مما أثار القائد (كليبر) على السيد محمد كريم وظن له يدا فعالة فى هذا الشعب، فراقب حركاته وتنقلاته، وشاهده يجتمع مع الثوار، ويشير عليهم بالرأى ويقدم ما يستطيع من العون، فتأكد لديه خطورته وعزم أن يهتبل الفرصة فينكل به، ليرتاح من خطر يتهدده بين الحين والحين.

وفرض القائد على المدينة ضرائب قاسية، فذهب السيد محمد كريم لمطالبته بتخفيضها عن شعب الإسكندرية

المكدود، وأعلن رفضه لهذه المطالب المجحفة، فأسرها القائد في نفسه واتخذ منها دليلا ثابتا لإدانته، ثم رأى كليبر أن يعدل ببعض جنوده إلى المدن المجاورة عله يجد بها ما افتقده في الإسكندرية من قوت ومؤونة، وسار الجنود في الصحراء المقفرة حتى بلغوا دمنهور وظنوا أنهم سيفيئون بها ظلال الراحة، ولكن المدينة جابهت دخلاءها بعاصفة رهيبة ومردت عليهم مرودا لم يبق معه مكان للاستقرار، وتساءل الفرنسيون عن هذا العصيان الخطير، فوجدوا اسم السيد محمد كريم يتردد على كل لسان، وسمعوا الكثير عن بطولته وزعامته، فعرفوا معرفة تامة أن الرجل قد أصبح زعيما شعبيا لا يقتصر خطره على الإسكندرية بل شمل مدن القطر جميعها، فرجعو أدراجهم إلى (كليبر) ليخبروه عما شاهدوه ولمسوه، وكانت نفس القائد مهيئة للقبض على السيد محمد كريم فأصدر أمره بذلك ثم جاءه أن نابليون بالقاهرة قد وجد بمنزل مراد كتبا ورسائل من السيد محمد كريم تدعوه لمواصلة الجهاد والسير لإنقاذ الإسكندرية فأيقن أنه أمام خصم ماكر عنيد يحاربه في أكثر من ميدان وبادر بإرساله إلى القاهرة لينال جزاءه من نابليون رأسا، فمر بطريقه على رشيد، وقد احتشد الأهالي لتحيته وأرسلوا

هتافهم الصارخ يعلن ولاءهم المخلص للبطل المعتقل المستبسل والزعيم الجرئ، وتابع الأسير سيره، حتى وصل إلى القاهرة فأصدر نابليون أمره بإعدامه مع مصادرة جميع أمواله وسمح له أن يفتدى نفسه بثلاثين ألف ريال فى أربع وعشرين ساعة.

والناظر إلى هذا الأمر الخطير.. يجد نابليون يبحث عن المال فى شره جاشع فهو يعلم ما للسيد كريم من ثروة طائلة يود ابتزازها فى غمضة عين، وهو لا محالة آمن شره إذ أنقذه من الإعدام ونزل فى أعماق السجون، ولكنه وجد الزعيم الصابر يسمع الحكم فلا يبدى استعداده لدفع المال، فيطير صوابه ويرسل إليه المستشرق الفرنسى الداهية «فانتور» ليعلن إليه أن نابليون مسلم صح إسلامه وأنه يريد الخير كل الخير للمصريين وهو معجب كل الإعجاب بمن يخدم بلاده ويذود عنها لأنه تصدر الوطنية الصادقة، وقد جمع رجال الديوان من صفوة العلماء وخيرة الأعيان فعلى السيد كريم أن يبذل المال المطلوب فداء لنفسه وسيسعى بعد فى خلاصه وإطلاق سراحه، ليكون كما كان فى طليعة الرجال، ثم اصطنع الزائر إشفاقا مموها وصاح بصاحبه: لقد سمح لك نابليون أن تفتدي نفسك بثلاثين ألف ريال، وأنت رجل غني، فماذا يصدك أن تفتدي نفسك بهذا المبلغ الصغير؟.

وترقب فانتور بعد محاضرته المنمقة عن نابليون أن يلمس خضوعا مستكينا من أسير قربت خطواته من الموت حتى أصبح قاب قوسين ولكنه يجد صاحبه يقول في عزيمة وإباء:

«إذا كان مقدرا على أن أموت فلن يعصمني من الموت أن أدفع المبلغ، وإذا كانت الحياة مقدرة فلم أدفعه دون استحقاق؟»

وكانت إجابة خطيرة ساقت صاحبها إلى الإعدام الظالم، فأدى به إلى الشعب رسالة أخرى في التضحية والاستشهاد بعد أن أسلف رسالته الأولى في الكفاح والجلاء.

ورفرفت أجنحة الملائكة للترحيب بشهيد عاطر الذكر جرئ القلب يودع وطنه اللهيف ليستقبل عدالة الحق والإنصاف في السماء.

وتمضي الأيام فتشرق شمس الحرية على مصر بقيام ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ فينصفه الأحرار إذ توضع صورته مكبرة على رأس المحافظين في دار المحافظة تخليدا لذكراه ثم يطلق اسمه على شارع من أهم شوارع الإسكندرية وهو شارع التتويج، ويطلق كذلك على مسجد عظيم بالثغر كان قد أعد ليحمل اسم فاروق، وماعند الله أعز وأكرم.


أحمد خان
مصلح كبير مفترى عليه

مما يُؤسف حقاً أن نجد فريقاً من الكُتاب يتحدثون عن زعماء العالم الإسلامى فى العصر الحديث حديث المستخف الذى يتربص الشر بالفضلاء. فتراهم يترجمون لأمثال محمد عبده وقاسم أمين وسعد زغلول وأحمد خان، وكل همهم أن يجردوهم من فضائلهم المشهورة. وأن يلتمسوا مايشم منه رائحة الاعتدال ليجعلوه مروقاً وانقياداً إلى الاستعمار الغربى. وذلك مرض خلقى قبل أن يكون خطأ علمياً.

ومن الذين قادوا حركة الإصلاح الدينى فى الهند السيد أحمد خان، حيث أنقذ المسلمين من هُوة الجهالة والتأخر والانعزالية إلى عالم التقدم والمعرفة والحضارة. وأبلى فى هذا المجال بلاء يشهد به الواقع الحضارى للمسلمين فى الهند إذا قيس بما قبله من مهاوى التأخر والجمود، ولكن ذلك لم يكن شفيعاً له لدى من يحسبون أنهم وحدهم المسلمون، وأن من يُخالفهم فى الاتجاه مارقٌ ملحد ضلول! وجماهير العامة فى كل بلدٍ إسلامى تنخدع بأضاليل المتزيين بالعمائم واللحى بل بالتمائم والتعاويذ حين يصدرون الأحكام الضالة على غير هدى، بل عن جهالة مفرطة، وقد يستشهدون

بأقوال لايفهمونها على الوجه الصحيح !

ولعل أكبر من ساعد على انتشار الأراجيف حول السيد أحمد خان، هو الرجل العظيم جمال الدين الأفغانى فقد كتب عنه مقالاً نارياً ملتهباً، لمهادنته الإنجليز فى سبيل تنفيذ مارآه من وجوده الإصلاح، والأفغانى ثائر صاحب لايلتمس أنصاف الحلول، ويفضل المجابهة الصارخة - وإن عادت عليه بالإخفاق - على المسالمة الداعية إلى أخذ الحقوق بالتؤدة شبرا شبرا، ومسلكه هذا إزاء أحمد خان هو نفس مسلكه إزاء تلميذه الإمام محمد عبده حين فضل الاتئاد فى مناوءة الإنجليز بعد إخفاق الثورة العرابية، لأنه وجدهم يملكون كل شيء في مصر. ولا يستطيع المصريون أن يقوموا بمقاومة سافرة أمام القوة الغاشمة، فرأى من الحكمة أن يهادنهم كي لايقفوا فى سبل طريق الإصلاح الدينى الذى يصر على تنفيذه! ولم يكن محمد عبده غافلاً عن حقوق وطنه في الاستقلال والحرية ولكنه رأى اتباع الخطوات المؤدية إلى النجاح دون اصطدام يمنع خطة الإصلاح أن تسير كما يريد! كما لم يكن أحمد خان يجهل أنه يحارب قوة استعمارية تستطيع أن تشل

حركته شللاً تاماً، وقد أتت جهود الرجلين الحصيفين أشهى الثمرات فانتقل الفكر الإسلامى فى الهند ومصر من عهد الجمود المتحجر إلى عهد الإنطلاق الرشيد، وأريد بعد ذلك من المتشنجين من دعاة الغيرة الجاهلة على الإسلام أن يعرفوا أن الإسلام عزيز جداً على كل مسلم، وأنهم ليسوا أقوى إيمانا وأصلب عقيدة ممن ينادرونهم بالشقاق، فإذا كان من رأىٍ مخالفٍ لديهم. فلهم أن يبدوه بعيداً عن التشنج والضجيج، على ضرورة التسليم بأنهم ليسوا وحدهم أصحاب الرأى الصحيح، لأن كل إنسان يخطىء ويصيب، ولعل أعظم وأفضل من أستشهد به فى مجال الحديث عن (زعماء الإصلاح فى العصر الحديث) هو الدكتور أحمد أمين، لأن كتابه الذائع تحت هذا العنوان قد أعطى كل زعيم حقه. فذكر ماله وما عليه بأسلوب المؤرخ المنصف، ولذلك رجحت كفة هؤلاء الزعماء لديه عن يقين!

يقول الدكتور أحمد أمين فى مقدمة جديثه عن السيد أحمد خان نقلا عن كتاب (زعماء الإصلاح فى العصر الحديث):

هو فى الهند أشبه شيء بالشيخ محمد عبده فى

مصر، بعد مفارقته السيد جمال الدين الأفغانى وعودته من نفيه، الإصلاح عندهما إصلاح العقلية بالتهذيب والتثقيف، والنظر إلى الدين نظرة سماحة ويسر، والاستقلال يأتي بعد ذلك تبعاً، فلا استقلال لجاهلٍ ولا منحرف، إنما عماد الاستقلال العلم، العلم بالدنيا والدين، العلم بكل شيء أتت به المدنية الحديثة من طبيعة وكيمياء، ورياضة، وفلك، ونفسٍ واجتماع، ونظام الحكم والإدارة، ذلك كله إلى دين يحيى القلب. ولا يقيد العقل، ويغذى النفس، ولا يشل التفكير. والإسلام إذا فُهم على أصوله كفيل بذلك، فليس فيه مايمنع الإنسان أن يصل فى العلوم، ونظم الدنيا إلى غايتها، بل فيه مايبعث على ذلك ويشجعه، وفيه مايحيى القلب ويوجه الإنسان فى حياته وفى علمه إلى الخير، ثم كلاهما يرى أن السلطان في مصر وفى الهند فى يد الإنجليز، ولهم من القوة المادية من الأسلحة والذخائر في البر والبحر، ومن القوة العلمية والسياسية ما لا تستطيع مصر والهند مقاومته، قد يستطيعون المقاومة إذا اتحدوا، ولكن كيف اتحادهم مع جهلهم وضعف خلقهم، بل كيف يكون ذلك مع فساد أمرائهم

وبحثهم عن منافعهم الشخصية، فالأولى مسالمة الإنجليز والتفاهم معهم، وأخذ مايستطيع لخير الشعب منهم، لنفهم الإنجليز أن عليهم واجب النهضة بالشعوب التى يحكمونها عقلياً، كما ينهضون بها مادياً، وأنهم مسئولون عن جهل الأمم التى يحكمونها، كما أنهم مسئولون عن فقرها، وأن العلم والثقافة وإثارة الأذهان فى مصلحة المستعمِر والمستعمَر.

لقد حضر إلى مصر فى ربيع الآخر الأستاذ فخر الدين أحمد مسجل جامعة عليكرة وألقى بجمعية الشبان المسلمين محاضرة قيمة عن هذه الجامعة ومنشئها السيد أحمد خان فكشف للمجتمع المصرى عن حقائق رائعة لم يكن الجمهور على علم بها، بل كان عن علمٍ بما يناقضها استجابة لتضليل المتشنجين ممن يلصقون التهم بالأبرياء، وقد رأيت أن ألخص هذه المحاضرة أو الفقرات الهامة بها، ليعرف من يجهل كيف كافح الرجل الكبير حتى حقق ثمرة الكفاح بقيام هذه الجامعة ذات الأثر الخطير، وقد ألقى الأستاذ فخر الدين حديثه بالإنجليزية، وقام بترجمة خلاصته الأستاذ محمد أحمد الغمراوى، فكان مما قال ملخصاً: «استمر الإنجليز تجاراً بالهند قرابة ٤٠٠ سنة،

فعملوا على نشر التربية الحديثة، ولم يقبل عليها المسلمون، على حين انتفع بها غيرهم. فعرفوا كثيراً من العلوم المعاصرة، وحين حكمت الهند البلاد لم نجد من يستطيع تقلد الوظائف الحكومية غير الذين تعلموا وواكبوا العصر، ثم ضاعت ثروات المسلمين المالية فى مناوءة الاستعمار الإنجليزى، فأصبحوا فى حالة بائسة إذ فقدوا المال وحرموا الوظائف، عند ذلك شعر السيد أحمد خان بالعاقبة الوخيمة التى تهدد المسلمين إذا لم يواكبوا العصر فى تعلم ما جدَّ من الفنون، ورأى أنه لابد للمسلمين من أن يسلكوا طريق التربية الحديثة إذا أرادوا أن يحتفظوا بوجودهم المحترم في الهند، ولا سبيل إلى ذلك غير إنشاء معاهد علمية خاصة بهم، ومن أين؟ كما أن لغة المسلمين هى الأردية وليست لغة العلم الحديث، لقد وقف المال عقبة أمام المشروع التعليمى، ولكن أحمد خان رأى أن يبتدىء بالفصول اليسيرة فى مدرسة متواضعة، ويترقى بها عاماً فعاماً حتى تصير كلية ثم تصير جامعة، على أن تُدرس بها اللغة الإنجليزية ليستطيع الطالب المسلم استيعاب العلوم الحديثة فى كتبها الأصلية، وكان اتخاذه اللغة الإنجليزية أداة لتعليم

العلوم الحديثة دون الأوردية مصدر ضجة ناقمة بين الشيوخ، وقد رد عليهم السيد أحمد خان بأن الأردية ليست لغة القرآن، ومع ذلك فهى لغة الشعب الذى لم ير مانعاً من إتقانها، فلتكن الإنجليزية، لغة الثقافة. ولن تضرّ الدين فى شيء ولكن الرجل صمم على تنفيذ فكرته فأنشأ مدرسة فى عدة أكواخ، ومازالت تنمو فى جو من المعارضة حتى تحولت المدرسة إلى كلية ثم إلى جامعة وهى التى تسمى جامعة عليكرة التى أصبحت كبرى جامعات الهند.

وبعد سبع سنوات من تأسيس الجامعة أى فى سنة ١٢٩٩ هـ لأنها بدأت ١٢٩٢هـ، ألفت حكومة الهند لجنة تبحث مسألة التربية فى الهند، فكان رأيها الذى سجلته فى التقرير أنه إذا أنشئت جامعات أخرى على نمط جامعته عليكرة فستحل مشكلة التربية الوطنية فى الهند، وقد رأى السيد أحمد أن تظل جامعة بعيدة عن سلطة الحكومة مع انتفاعها بما تراه صالحاً من أساليب الجامعات المتقدمة فى الغرب، وإذا كانت جامعات الشرق فى اليابان والصين قد انتفعت بتجارب الجامعات الأوربية فلابد أن نحذو حذوها كيلا نتخلف عن

الركب ، ثم رأى أن يزور جامعتى أكسفورد وكمبردج بانجلترا ليدرس عن قرب أساليب التعليم بهما ومناهجهما ، ويختار منهما الصالح المناسب للمسلمين فى الهند ، وأخذ معه ولده القاضى الكبير السيد محمود ، وهو أول من تولى القضاء من الهنود ، ثم درسا معاً طُرق التعليم ، واهتديا إلى أن رسالة الجامعة ليست رسالة العلم وحده ، بل لابد من تربية الخلق والسلوك ، والعمل على تكوين الشخصية الاجتماعية المستنيرة ، فاتجه السيد أحمد إلى أن يكون من مواد الدراسة فى جامعة عليكرة ما يعمل على تكوين القادة ، وتنشئة الرجال ذوى الخبرة بأساليب الحياة ، ثم خطب بعد رجوعه فى مؤتمر حضره أساتذة الجامعة ونبهاء الطلاب ، فأعلن أن ماينقص المسلمين فى الهند هو تخريج القادة الذين ينهضون بأعباء الأمة الإسلامية ، وعلى الجامعة أن تعمل سريعاً على ملا فاة هذا النقص ، واستقر الرأى على أن تكون الجامعة داخلية يعيش فيها الطالب يومه الكامل كما يعيش فى بيته تماماً ، إذ يعلّمه أساتذته فى ساعة العمل بالفصول ، ثم يكونون معه لتعليمه سلوكه الاجتماعى بتأثير توجيهاتهم المقومة للسلوك الأمثل ،

وعلى الأغنياء أن يسهموا فى نفقات إقامة الفقراء بالجامعة وليست من الفداحة بحيث لايتيسر لهم مايطلب من المال، إذ لا يتكلف الطالب فى الشهر الواحد غير خمسة جنيهات فقط: مأكلاً وملبساً ونوماً، أما الحياة الرياضية فقد اقتبس السيد أحمد خان منهجاً من أكسفورد، وأصبحت التربية الرياضية إحدى رسائل التكوين الخلقى بما تفرضه من تسامح وانضباط، ودقة مع التنافس الشريف الذى لايؤدى إلى الشحناء! وقد تخرج من طلاب جامعة عليكرة من صاروا أصحاب الكلمة المسموعة فى الهند، وتولوا زعامة المسلمين مثل مولانا محمد على ومولانا شوكت على، وقد تولى القيادة فى المناصب الهامة بالهند صفوةٌ من المتخرجين منها، ولولا جامعة عليكرة لظل المسلمون بعيدين عن المناصب الهامة فى الدولة إذ كانت ثقافتهم قد انقطعت عن ثقافة العصر تماماً، ولابد من دم جديد!

وقد كان من أمل السيد أحمد أن تصبح جامعة عليكرة مناراً للمسلمين فى كل بقاع العالم الإسلامى، فلا يقتصر الالتحاق بها على الهنود وحدهم بل تفسح صدرها للوافدين من البلاد الإسلامية. وضرب المثل على

ذلك بالأزهر الشريف فى مصر الذى يضم أروقة لأبناء الدول الإسلامية، ينزلون بها للإقامة المريحة جوار مايتلقون من فنون العلم، وإذا اقتصر الأزهر على الدروس الدينية وحدها فلأن جواره بمصر جامعة أخرى تقوم بتدريس العلوم المعاصرة، (وهذا كان قبل التطوير الذى أنشأ الكليات المدنية فجمع الثقافة الإسلامية إلى غيرها من علوم العصر).

كما أن السيد أحمد خان قد انتدب للتدريس بالجامعة أساتذة من انجلترا، وتولى بعض المستشرقين المعتدلين، دراسة العلوم التاريخية والجغرافية، وألفوا فى عناصرها كتباً صارت اليوم من أقوى المراجع فى الحضارة الإسلامية، ومن بينهما كتاب (الدعوة إلى الإسلام) الذى ألفه المستر(توماس أرنولد) ومن كبار أساتذتها المرموقين الدكتور نظير أحمد الكاتب الهندى الأشهر، والعلامة الشيخ شبلى النعمانى الذى تُرجمت آثاره الإسلامية إلى اللغة العربية ونشر بمجلة المنار بحوثاً كان منها نقده الدقيق لكتاب (التمدن الإسلامى) لجورجى زيدان، وغيرهم كثير.

وفى كتاب الإسلام فى القرن العشرين حاضره

ومستقبله، فصل منصف كتبه مؤلفه الأستاذ عباس محمود العقاد، عن السيد أحمد خالد أوجز فيه خلاصة جهوده التربوية الهادفة، وقال فيما قال:

«وقد وُصف السيد أحمد خان بالأناة والحذر، وكاد المترجمون له أن يصفوه بالمبالغة في أناته وحذره، ولكنهم لو وصفوه بالإقدام والهجوم، لوجدوا الدلائل علي ذلك أظهر وأكثر من دلائل الأناة، إن كان معني الأناة أن يتخلف المستأني عن العمل في حينه، فما تواني أحمد خان عن مصارحة الإنجليز بتبعاتهم وعيوب إدارتهم وما تواني عن مصارحة قومه بجمودهم وعجزهم، ووسائل الخلاص من نكبتهم، وما تواني بعد ذلك عن مصارحة الهند كلها بتنظيم الحياة النيابية فيها علي النحو الذي يصلح لجميع أبنائها مع تعدد النحل، وتفاوت النسبة في توزيع السكان، ولكنه كان يخشي مغبة العجلة، ولا يؤمن بجدواها، وكانت هذه الأناة منه أدل علي الشجاعة من الهجوم السريع، لأنه كان يغضب بها أضعاف من يرضيهم بالتعجل في غير جدوي، وقد عرف مكامن الضعف في قومه، ولم تخف عليه مكامن القوة في الدولة الغالبة علي وطنه، فجزم بضرورة

التعليم الحديث ثم بدأ بإرسال ابنه إلي الجامعات الإنجليزية، ولخص مناهج الإصلاح عنده في الدين المستنير.

ومن شأن الذين يقومون بالإصلاح الديني في بلادهم ألا يفرغوا للتأليف العلمي مع قدرتهم الكاملة عليه في أتم وجوهه، لأن أعباءهم المتراكمة في مجالهم الواسع تشغل من أوقاتهم كل لحظة. فجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده والكواكبي وحسن البنا والمراغي لم يتركوا من الآثار العلمية ما تركه زملاؤهم الذين تفرغوا للبحث النظري فحسب، ولكن السيد أحمد خان قد كان قلمه مواكبا حركاته الإصلاحية فخالف هذه القاعدة حين أكب علي التأليف ليبث في مضاعفات آثاره توجيهاته الإصلاحية فقد كان شاعرا يقف في اللغة الأوردية مع شعراء عصره المجيدين كما أكد ذلك من درسوا قصائده، وقد أنشأ جريدتين لم يخل عدد منهما من نفثات يراعه، وهما «سيد الأخبار» و«تهذيب الأخلاق» لأنه كما قال بقلمه «لم يأل جهدا في ترقية العلم والأدب باللغة الأردية، فاتخذ أسلوباً يجمع بين السهولة والجزالة مجتهدا في تشويق القاريء إلي مقالته

التي تنقل عواطفه ومشاعره، وكلها تتجه وجهة الإصلاح والتهذيب، وكان يعرض أفكار معارضيه وافية مكتملة ليرد عليها فقرة فقرة، والذين شنوا الحرب عليه في حياته قد اعترفوا بفضله حين انتقل إلي رحمة الله سنة ١٨٩٨ فكتبوا المقالات الضافية تأبيناً وتحليلاً وتقديراً، ولابد أن أشير إلي تفسير القرآن الكريم الذي ألفه بروح علمية تركز على النهوض الإسلامي في شتى المجالات ولم يتعرض للمعجزات التي تملأ كتب المفسرين عن أنبياء الله، وعد ذلك مأخذا شدد عليه خصومه النكير، ولعل الرجل لم يشأ أن يلم في تفسيره إلا بما يفيد الحاضر، أما الماضي البعيد، فقد أفاض المفسرون في تحليله، وإذا كان هناك خلاف في بعض ما اتجه إليه، ففي كتب كثيرة من كتب التراث مواضع للخلاف الشديد، والرجل بعد ذلك معترف بأنه يخطيء ويصيب، ولعلي وفقت لقول كلمة الحق عنه بين ركام هائل من الأباطيل.


علي مبارك
دوره الإصلاحي وموقفه من الثورة العرابية

إن المشاهد الملموس أن زعماء السياسة يحظون من التنوية والافتعال، وتعدد الدراسات بأكثر مما يحظى به زعماء الدين والاجتماع والاقتصاد والتربية، فأحمد عرابى ومصطفى كامل وسعد زغلول وهم ممن لا نشك فى زعامتهم الحقيقية قد نالوا من التنوية أكثر ممن نال محمد عبده وعلى مبارك وطلعت حرب، وهؤلاء قد أفادوا الأمة، وجاهدوا فى سبيلها جهاداً لا يقل عن جهاد السياسيين من الزعماء، وسأتحدث الآن عن بعض مآثر على مبارك التى عادت على الأمة فى ميادين شتى بالتقدم والازدهار

وأذكر أنى كتبت بمجلة الهلال مقالا عن على مبارك قلت فى مطلعه: «إذا نظرنا إلى أعمال على مبارك الإدارية عجبنا كيف اتسع وقته لهذه الأعمال الجليلة فى عدة وزارات مختلفة، وكيف كان الرجل بارع الجهد فى التربية والتعليم والهندسة والأشغال والمواصلات والأوقاف، لقد أدى ذلك الجهد بكفاح جبابرة لا يعلمون أنهم جبابرة لأن جبابرة العلم حكماء فضلاء، لا يرسلون الضجيج الصاخب كما يرسله جبابرة الحروب والسياسة، وكان من المعقول ألا تترك هذه الجهود الإدارية مجالا للتأليف النظرى بعد الكفاح العملى الدءوب، ولكن على مبارك

ترك من المؤلفات في شتى العلوم ما يستغرب إبداعه من قبله في مهامه الإدارية الشاقة، فكيف إذا كان هذا المجال العلمي فسيحا ممتداً يشمل مجلدات تقع في عشرين جزءا تحت عنوان (الخطط التوفيقية) كما تمتد هذه المؤلفات الى كتب مستقلة في مختلف الفنون من تربية وهندسة وزراعة وقصة! أجل لقد مارس الرجل القصة الطويلة في جزءين كبيرين، كما فهم مدلولها في عصره، وفي منهجه الإصلاحي، وأضحى رجال الفكر التاريخي يفسحون له مجالا في التفكير العلمي كما يفسح له رجال الإصلاح الاجتماعي مجالا رائعاً في دنيا التقدم الحضاري، أقول بعد ذلك: ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد.

ونحن حين نريد أن نلم بموجز حياته وأعماله، نجد الطريق ميسورا، لأن الرجل قد ترجم لنفسه ترجمة مشبعة ضافية في كتاب الخطط التوفيقية، فكان من أوائل من كتبوا السيرة الذاتية في الأدب الحديث إن لم يكن أول من كتب على الإطلاق فالسبق متنازع فيه بينه وبين رفاعة الطهطاوي، وكلاهما علم في بابه، وأجمل ما في ترجمته لنفسه أنه وهو الوزير الخطير والمصلح الاجتماعي

الناهض، لم ينكر ماضيه الأليم، بل تحدث بإسهاب عما لاقاه فى نشأته الأولى من أهوال يكفى أحدها لصده عن طريق التعليم، ولكنه كافح وناضل، وحفر بأصابعه الصخر الجامد حتى بلغ ما أراد، وقراءة ما كتبه فى هذا المجال درس عملى تربوى يغنى عن صفحات كثيرة تقال فى بعث الهمم، والتغلب على الصعاب، لأنها تنقل عن واقع عملى لا خيال فيه، وتدل بما لا يحتمل الشك فى أن الجهاد الجاد والكفاح المتصل ينتهى الى النتيجة المرجوة، لأن الله لا يضيع أجر العاملين!

ولد على مبارك فى برنبال الجديدة سنة ١٨٣٣م فى كنف والد كان فقيه البلدة، وإمام مسجدها، وكاتب العقود الزوجية، والمباشر لتقدير الموازين فى المحصولات الزراعية، وهذه الوظائف جعلت له وجاهة فى قريته، ومنزلة لدى الحكام، فهو لا يشقى شقاء الفلاحين يشقى فى زرع الأرض وتقديم المحصول إلى الملتزمين، فإن عجزوا فالضرب بالسوط والحبس والقهر، غير أن الحال لم تدم فقد هرب أكثر الفلاحين من القرية وتركوها دون من يزرع، ففرض الحكام على والد على أن يقوم بالزراعة كما أوجبوا عليه من الضرائب ما لم يستطع دفعه فهرب

بأسرته إلى الشرقية، ووجد عملا كعمله الأول فى قريته إذ كان القوم فى حاجة الى فقيه وإمام وكاتب عقود، ثم ألحقه والده ببعض المعلمين ليجيد القراءة والكتابة، فصادف رهقا فى المعاملة وغلظة فى العقاب دون أن يجد من الأسلوب التعليمى ما يفيد، فهرب من المعلم على غير رغبة أبية، وواصل الالتحاق فى قرى أخرى بمن يكمل له تعليمه فكان لا يجد من يبتغيه، وقد حصلت مشادة بينه وبين كاتب القرية، فافترى عليه أنه لص وأدخله السجن، ولكن عليا بعد طول تفكير ترضى السجان فسهل له طريق الهروب، وبجهده استطاع أن يلتحق بخدمة مأمور ذى سلطان على الناس، وهو أسود، له فى الناس منزلة كالحكام الأتراك، فجعل الصبى يقول فى نفسه هذا عبد أسود واستطاع أن يكون حاكما، فما الذى أوصله الى ذلك، وواصل السؤال حتى علم أنه تخرج في مدرسة القصر العينى بالقاهرة، فمهدت الطريق له كى يكون رئيساً حاكما، ومن هنا كان شغله الشاغل أن يلتحق بالمدرسة، وواصل جهده حتى أصبح تلميذا بها، ولم ينل ما يرجوه، لأن المدرسين كانوا غلاظا فى المعاملة، وكانت سبل الإقامة من نوم ومسكن وملبس على أسوأ ما ينتظر،

فالنوم على الحصير من الحَلْفاء، والطعام خشن جاف تعافه النفس، حتى كان يفضل الجوع عن تناوله! ولحقه المرض، وأدركه الجرب لعدم الاهتمام بالصحة.. ثم أشرق فجره حين انتقل الى مدرسة المهندسخانة، فقضى سنواتها الخمس مرموقا بين المدرسين والطلاب لأنه كان الأول فى جميع السنوات، وبهذا التفوق الملحوظ اختير للسفر لباريس مع أبناء محمد على، ولم يكن يعرف حرفا من الفرنسية لأن الذين أرسلوه لم يبغوا تعليمه ولكن كى يكون فى خدمة الأمراء فدفعته غيرته إلي أن يتعلم الفرنسية لا فى حصص دراسية ولكن عن طريق من يعرفها من الطلاب، وتقدم للامتحان وهو ليس من أعضاء البعثة المصرية ففاز والتحق بمدرسة أرقى فأجاد الهندسة الحربية، ونظم المدنية، وعاد يحمل الشهادة الباريسية ليشغل وظيفة فى إدارة الأشغال الخاصة بمراقبة النيل وإصلاح الترع والجسور! وفى أثناء اتجاهه إلى دمياط مع رؤسائه استأذن كى يزور قرية برنبال بعد أن فارقها منذ أربع عشرة سنة، وكان أهله قد رجعوا إليها بعد الهجرة منها، وهذه الزيارة الغريبة التى لم يكن ينتظرها أحد من أهله بعد أن يئسوا من لقائه، تحدث عنها على مبارك فى

بساطة عذبة فقال: «لم أجد في المنزل إلا والدتي وبعض إخوتي، وكان دخولي عليهم ليلا، فطرقت الباب فقيل من أنت؟ فقلت: ابنكم علي مبارك، وكانت مفارقتي لأمي أربع عشرة سنة، لم ترنِ فيها، ولم تسمع صوتي، فقامت مدهوشة إلى ما وراء الباب، وجعلت تنظر، وتحد النظر، وكنت بقيافتي العسكرية الفرنساوية لابسا صيفا وكسوة تشريف، وكررت السؤال حتى علمت صدقي، وفتحت الباب، وعانقتني، ووقعت مغشياً عليها، ثم أفاقت وجعلت تبكي وتضحك وتزغرد وجاء أهل البيت والجيران وامتلأ المنزل أناسا إلى الصباح، ثم رأيت والدتي في حيرة فيما تصنعه لي من الإكرام، وتريد عمل وليمة وهي فارغة اليد، ورأيتها تبكي ففهمت حقيقة الحال فناولتها عشرة نبتو كانت في جيبي ففرحت وأولمت، ثم استأذنت ووعدتهم بالعودة ورجعت الى دمياط».

كان البيت الحاكم منشقا على نفسه، فمن يصطفيهم عباس الأول يكرههم سعيد، وكل الناس يعرفون اتجاه كيان الموظفين، لذلك كان عباس الأول راضيا عن علي مبارك، فعهد إليه أموراً مهمة، وكان شديد الكلفة ببناء القصور فجعل على مبارك مهندسه الأول، وظل محترما

فى عصره، ولكنه لا يستطيع ان يعارض الحاكم فى اتجاهه إلى إلغاء البعثات التعليمية بالخارج، وتخريب المدارس وطرد من بها من الطلاب، إذ كان عباس لا يود أن يكثر التعليم لضيق أفقه، ولم تطل أيام عباس إذ راح ضحية مؤامرة من أعدائه، وانتقل الحكم الى سعيد، فكان من همه إقصاء كل من له سبق بعباس، ولم يشأ أن يهمل على مبارك نهائيا، بل ألحقه بالفرقة الحربية التى ذهبت لمساعدة الدولة العثمانية، فاستمر بها سنتين أسفا لأنه لا يعمل فى ميدانه، ولا يستطيع أن يفيد مصر فى شئ ولكنه من ناحية ثانية تعلم اللغة التركية بمساعدة من بها من كبار الجنود الأتراك، وهكذا يتسع فهمه للتعليم كيلا يفوته شئ، وأكبر ما أثر فى نفسه يوم ترك وظيفته بمصر حين خرج التلاميذ من المدرسة التى يديرها باكين فأصروا على توديعه بالرغم من معارضة ضباطهم، وقد فرحوا أنهم لم يجدوا مثله إذ كان أبا رحيما قبل أن يكون رئيس مدرسة، وبذل للمتفوقين من المكافآت المالية ما جعل ميدان التنافس يأتى بأشهى الثمار، ثم عاد من عاد من جنود الحملة العسكرية فابتسم له الحظ إذ تولى اسماعيل باشا حكم البلاد، وكان مشغوفا بالتعليم، وبناء المدارس

وإرسال البعثات، وتقدير الأكفاء، فكان على مبارك أكبر مساعد له فى هذا الاتجاه وحسبه أنه جعل التعليم المدرسى يشمل جميع العواصم بعد أن كان مقصوراً على القاهرة والإسكندرية، كما أكثر من الكتاتيب لتعليم الأطفال تحت نظام جديد. إذ كان من قبل محصوراً فى محفظى القرآن ممن لا يفهمون شيئاً من معانيه، وكانت الحالة الصحية للمكتب التعليمى سيئة حيث لا اهتمام بالنظافة إطلاقا، فالمريض يجلس جوار الصحيح وإن كان أجرب، والأطفال يشربون من ماء قذر ومن كوب واحد، وقد تجاوز المرحلة الأولى إلى ما بعدها من المراحل، فوضع لكل مرحلة منهجا، واختبر المدرسين بنفسه ليضع كل مدرس فى الموضع الذى يناسبه، ومن فضائله أن حول بعض الكتاتيب الراقية إلى مدارس ابتدائية، فارتفع المستوى للتلاميذ، ومن ثقة إسماعيل به أنه عهد إليه الإشراف على الأوقاف والاشغال فانتهز سيطرته عليهما ليكون منهما العون الكبير فى بناء المدارس، وفى إصلاح الطرق المؤدية إليها، ولا أترك الحديث عن أثره فى التعليم دون أن أشير إلى إنشائه دار الكتب المصرية، إذ جمع فيها ما استطاع جمعه من الكتب والملازم التى كانت تملأ شبابيك

المساجد الموصدة، ولا ينتفع بها أحد، وشجع الأعيان على التبرع بما لديهم من الكتب مخطوطة ومطبوعة لتكون مددا لدار الكتب، وقال إن ذلك له ثواب الوقف على الأعمال الصالحات، ومن كانت لديه مكتبة كبيرة جعلها في حجرة خاصة، وكتب عليها اسم صاحبها تشجيعا لسواه، وإذا كانت حالة التعليم من ناحية التدريس فى درجة هابطة لا تبشر بسرعة النتائج المرجوة، وبخاصة تدريس اللغة العربية الذى كان يجرى على طريقة حفظ المتون، ثم قراءة الشرح دون فهم، فقد عمل على إنشاء مدرسة دار العلوم منتخبا لها نجباء الطلاب من الأزهر بعد امتحان دقيق ومهيئا لها كبار الأساتذة الذين اشتهروا فى هذا الميدان، ومنهم أعلام البلاد فى الأدب واللغة والتشريع وجعل بالمدرسة قاعة للمحاضرات الأسبوعية، حيث يلقى كل أستاذ محاضرة فى مجال تخصصه يحضرها الطلاب ومن يريد من الموظفين وطالبى التثقيف!

أما إنشاء الصحافة الأدبية فقد كان إحدى ثمراته الناضجة حيث أنشأ مجلة روضة المدارس، وأسند رئاسة تحريرها إلى السيد رفاعة الطهطاوى، وعلى صفحات هذه

المجلة نشرت قصائد لطلاب صاروا من بعد من نوابغ الشعراء مثل: اسماعيل صبرى وصالح مجدى، ومصطفى نجيب.

ولم يستنكف أن يؤلف كتب المطالعة لتلاميذ المرحلة الأولى، وكان يزور المدارس يومياً ليشرح للمدرسين طريقة التدريس، ودعا صديقه على فكرى باشا للمشاركة في هذا المضمار فألف للتلاميذ كتبا فى النصوص والمحفوظات اختارها من القديم والحديث معا، كما اقترح تأليف كتب للنحو، ظهرت لأول مرة في أسلوب يعتمد على الأمثلة قبل أن يفاجأ التلاميذ بالقواعد، أما كتبه العلمية والأدبية فكثيرة مثل: (الخطط التوفيقية) وقصة علم الدين فى جزءين كبيرين وغيرهما، يقول الأستاذ أحمد أمين: «ومن طرائف على مبارك أنه وهو وزير المعارف الخطير لم يستنكف أن ينظر إلى الأطفال فى بدء تعليمهم للقراءة والكتابة فأخذ نفسه بتأليف كتاب من جزءين، يعلم فى أولهما حروف الهجاء وكيف تتركب. وثانيهما للتمرين على المطالعة السهلة في موضوعات جديدة، وقد كان فى وزارة المعارف أثناء توليته زمامها، حرا يضع المناهج واللوائح ويرسم الخطط للامتحان

ولقبول الطلاب فى مطلع العام، ثم بعد الاحتلال عين وزيرا لوزارة المعارف فوجد المستشار الانجليزى يعارضه فى كثير مما يريد، فكان يتألم فى غيظ، ولا يريد الاستقالة حتى ينقذ ما يستطيع إنقاذه حتى استقالت وزارة رياض، فترك الحكم وعكف على التأليف!

نأتى بعد ذلك إلي موقف على مبارك من الثورة العرابية، وهو موقف اختلفت فيه الآراء إلي حد التناقض فمن قائل إنه كان ضد الثورة ومنحازا كل الانحياز إلى توفيق، ومن قائل إنه لم يكن ضد الثورة وأنه اشترك مع زعمائها فى كثير من المواقف، ولكل آراؤه التى لا تسلم من شبهات تحبط مدلولها، ولم أر من تعرض لهذا الموضوع بموضوعية صريحة، وبحياد دقيق غير صديقى الاستاذ محمود الشرقاوى فقد كتب فصلاً جيداً بمجلة المجلة العدد ٤١ الصادر بتاريخ مايو سنة ١٩٦٠م ذكر فيه كل ما قيل من الجانبين، وانتهى إلى ترجيح دقيق بعد مناقشة ما تعرض له، ويقينى أن ما كتبه صديقى الأغر الأستاذ محمود الشرقاوى - رحمه الله - هو فصل المقال فى هذا المجال وسأنقل منه ما يضئ الحقيقية من ظلام كثيف، تاركاً ما لا يسبب تركه نقصا فى جلاء الحقيقة:

١ ـ فى أول مقدمات الثورة ترك على مبارك القاهرة إلى قريته ثم عاد بعد انكسار العرابيين فى كفر الدوار، وقبل موقعة التل الكبير ، فلما أمر عرابى بدعوة رؤساء الأمة وزعمائها إلى مؤتمر يقررون فيه موقف الثورة من توفيق، كان على مبارك من هؤلاء الزعماء الذين دعوا إلى هذا الاجتماع وشارك فيه واختار المؤتمرون وفدا لمقابلة توفيق والتفاوض معه فى أمر هذه الفتنة التى أوقعها الإنجليز بدسائسهم بينه وبين العرابيين، وسافر على مبارك مع هذا الوفد إلى توفيق فى الإسكندرية ويقول إنه بذل جهده للوصول إلى تقريب شقة النزاع وأن سعيه قد نجح عند توفيق.

ويعلق الأستاذ الشرقاوى على ذلك بأن هذا الرضا كان خداعا من توفيق، ثم يقول على مبارك : إنه اتصل أيضاً بالإنجليز ولكن مقت العرابيين لتوفيق كان سببا فى فساد مسعاه إلى الصلح.

٢ ـ يقول عرابى فى مذكراته : إن على مبارك أرسل إليه برقية من الإسكندرية يقول فيها إنه تقرر تأليف لجنة مشتركة يكون هو أحد أعضائها ويضم إليهم ممثلون لرجال الثورة للوصول إلى نتيجة ترضى الجميع، وقد

رفض عرابى هذا العرض محتجاً بأن المجلس الذى عقد فى القاهرة أصدر قرارات لا يجوز الخروج عليها.

٣ ـ نجد ذكرا لعلى مبارك فى محاكمة عبدالله باشا فكرى بعد فشل الثورة إذ يقول فكرى: وفى ليلة حضر على باشا مبارك ورافقته من منزله إلى قصر النيل، وألححت عليه أن ينصح لعرابى، ويعرض للجناب الخديوى حل هذه المسألة بالسلم، ومعنى هذا أن على مبارك كان صديقاً للثورة حتى ينصح زعيمها كما كان مقرباً لتوفيق أيضا.

٤ ـ يقول مستر بلنت وهو صديق عرابى الحميم: إن البارودى وعلى مبارك كانا يضعان العقبات والعراقيل فى طريق رياض باشا وهما عضوان فى وزارته ليعود شريف إلى رئاسته وبذلك يخدمان أغراض الثورة العرابية.

٥ ـ يقول بلنت: إن الغرض الذى رمى إليه رياض من إشراك على مبارك والبارودى فى وزارته هو كسب ثقة العرابيين واختيار صديقين من أصدقائهم.

٦ ـ كان على مبارك يميل ميل العرابيين ويناصر فكرتهم، قبل أن يخرجوا على توفيق، فلما ظهر أنهم لا يبالون سخط توفيق، ورضاه وأنهم يسيرون نحوالثورة

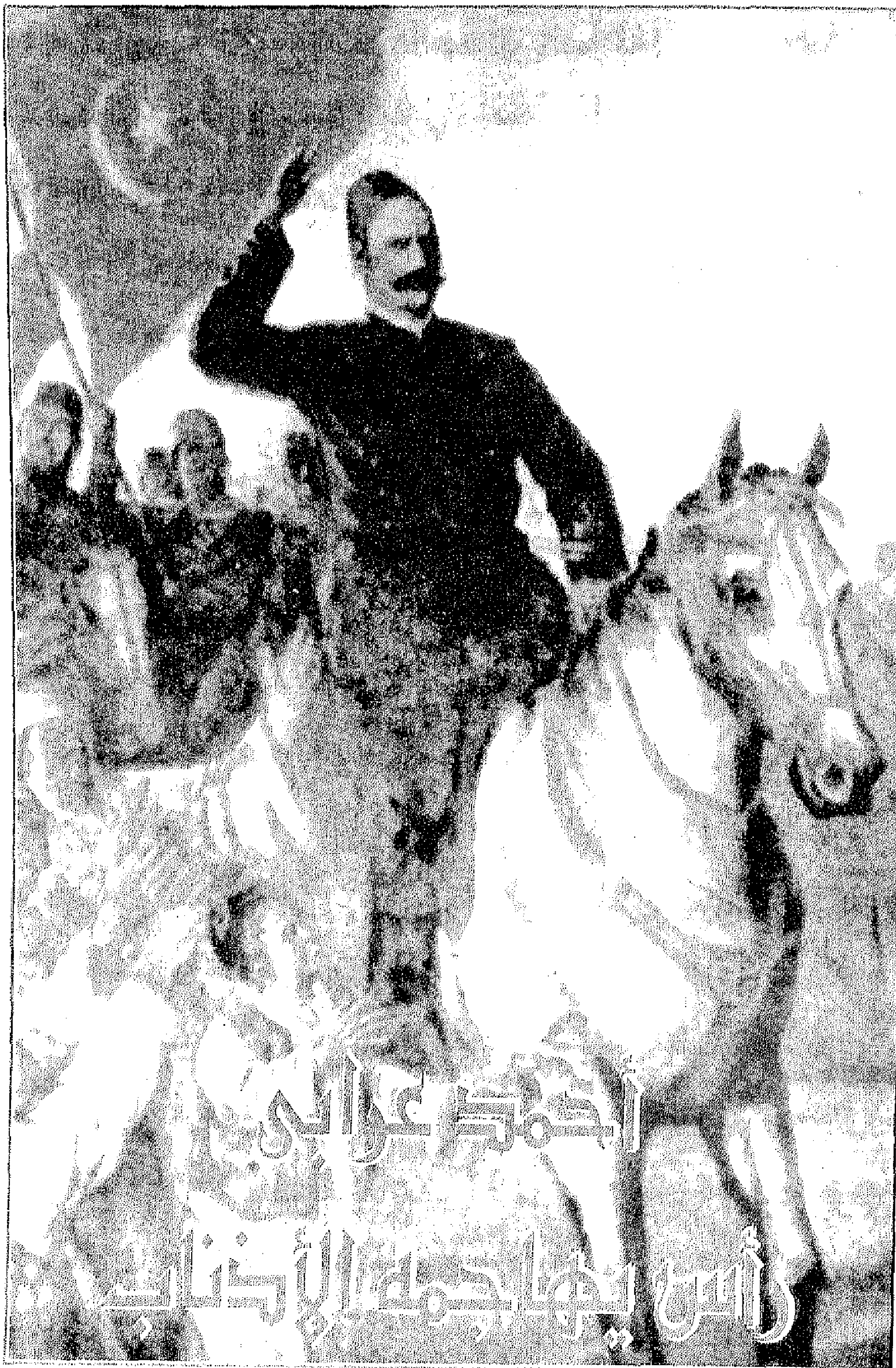
سار مع طبيعته وسجية نفسه من الاعتدال، ولم يبادرهم بالخصومة والمعارضة، لذلك اختاروه رئيساً لوفد السفارة عند توفيق، وتحدث إليه عبدالله فكرى أن ينصح العرابيين ويتوسط بينهم وبين توفيق، فلما فشل مسعاه وبان له أن الثورة واقعة لابد منها، تخلى عن مناصرة الثورة فى عنفها.

وخلاصة ما يمكن تحصيله من هذه الأقوال وما نطمئن إليه، هو ما أكده الأستاذ الشرقاوى بأن على مبارك كان رجلا معتدلا وسطاً لا يجنح إلي العنف ولا يقره ولا ينصح به، وكان يرى أن خدمة الوطن تكون بالعمل الهادئ المطمئن، وعلى ضوء هذه الطبيعة نستطيع أن نحدد موقفه من الثورة العرابية تحديداً لا يظلم الثورة، ولا يتحيف حقائق التاريخ، فهو واقعى ينظر إلي المسألة من جميع أطرافها.

والذين قالوا إنه خان الثورة، وأنه ضالع مع الإنجليز محاب للخديوى متسرعون لا يتئدون! وإذا كان المتصلون بالحاكم فى عهده من كبار الوزراء والمديرين من طبقة تترفع عن مخالطة الشعب، ومزاولة الأعمال الصغيرة، فإن على مبارك كان على النقيض من هؤلاء، إذ كانت

المصلحة العامة ديدنه، لا يبالي في سبيلها أن يقوم وحده بأعمال دون مستواه، فقد دعاه أدهم باشا في عهد سعيد أن يختار مدرسين ليعلموا الضباط مبادئ القراءة والكتابة، لأنهم أميون، فقال له، قد اخترت. فقال من؟ قال: أنا فاستغرب أدهم باشا أن يكون على مبارك في منصبه المرموق معلم أميين، وقال له: أنت أكبر شأنا من هذا! فقال له: كيف لا أنتهز فرصة أعلم فيها أبناء الوطن، وقد تعلمت الهجاء صغيرا، فوصلت به إلى ما وصلت!

وباشر مهمته بسرور وارتياح! ولعل مغزى هذا الموقف يغنى عن كل وصف يبرز معدنه الأصيل، وقد فصل الأستاذ الشرقاوى حقيقة ما كان دون انحياز، فأظهر على مبارك على حقيقته في حب السلام، ونبذ الخلاف.


أحمد عرابي
رأس يهاجمه الأذناب

حين نقرأ تاريخ زعماء مصر الثلاثة : أحمد عرابى ومصطفى كامل وسعد زغلول، نجد أن الزعيم أحمد عرابى كان سيئ الحظ كثيرا لدى من تصدوا لكتابة تاريخه بعد رحيله، لأن مصطفى كامل كان صاحب حزب سياسى له أنصاره وصحفه وكتابه، فحفظوا له مقامه الأسمى فى سجل المكافحين، وأقاموا حفلات الذكرى كل عام مرددة آثاره الخالدة، وكذلك كان سعد زغلول زعيم أكبر حزب سياسى عرفته مصر، وقد ارتقت البلاد بانتشار الثقافة والتعليم فى عصره وانحازت الجموع إلى تأييده، فصدرت الكتب المتتابعة مشيدة بجهاده الذى لا ينكر، وظلت حفلات الذكرى الموسمية تردد أمجاده الرائعة حتى أصبح اسمه رمز الحرية والكرامة والصمود عن حق لا عن افتعال، أما أحمد عرابى فمنذ خبا بريق الثورة وسيق إلى النفى، كانت سيطرة الاستعمار باعثة على تشويه كفاحه، وكان الوصوليون من أرباب الشهوات الدنيئة، يكتبون المقالات، ويؤلفون الأكاذيب انتقاصا لفضله.

وقام فريق من الشعراء بمهاجمته، حتى أن أحمد شوقى نظم ثلاث قصائد متتابعه فى هجوه والسخرية منه، وهى زلة شائنة تؤخذ عليه، ولا تسل عن الأكاذيب المفتراة التى

ألصقت به إلصاقا، فرمي بالجهالة والطيش والغرور والأثرة، واخترعت الحوادث الكاذبة لتأكيد هذه الافتراءات، وفسحت الجرائد اليومية صدرها لكل أفاق يرتزق بالهجو والسباب تزلفا للحاكم المحتل والخديوى المشجع وهكذا لم يجد الزعيم العظيم من يقول كلمة الحق عنه أو من يذكر ماله وما عليه، والأستاذ الكبير عبدالرحمن الرافعي على صدق وطنيته، ونزاهة حكمه، فقد صدق كثيراً مما أرجف به المرجفون فلم يحاول دحض هذه الأكاذيب الصارخة ولا أقول إنه كان سيئ القصد، بل أقول إن الأمور لم تتضح له في مرآة ساطعة الضياء، بل كان الضباب حائلا عن رؤية غائمة لكثير من الملامح، أما الأستاذ الكبير محمود الخفيف فهو الكاتب الجرئ الغيور الذى أزال ضباب هذه الافتراءات، وجلا شخصية الزعيم الخالد جلاء كشف عن بطولته وزعامته وصدق مواقفه، وأذكر أن أخى الدكتور عبدالعزيز الدسوقى وهو طالب لم يزل يتلقى دراسته الثانوية، قد كتب أول مؤلفاته فى تمجيد البطولة الرائعة التى اتصف بها الزعيم المضطهد، وحاول ما أستطاع فى هذا العمر الغض، والصبا المشتعل، بجذوة الإخلاص ان يضع أحمد عرابى البطل موضعه الصحيح، وإذا تركنا ترهات شوقى ومن حذا وحذوه

من ذيول الأسرة الحاكمة فإننا نجد شاعرا عظيما بإخلاصه واستقامة خلقه، يصيح صيحته العالية فى تمجيد أحمد عرابى غير عابئ بسلطة القصر، فيكتب كتاباً ممتازا عن الثورة العرابية يمجد فيه بطولة الأحرار من الزعماء بالمنطق الحر، والدفاع الجرئ، ثم ينظم قصيدة رنانة فى معركة التل الكبير تكون كعصا موسى إذ تلقف كل ما نظم المغرضون من أباطيل، وتقع فى ستين بيتا من رائع الشعر، وصادق البيان، ولا استطيع أن أنقلها هنا بل أشير إلى مصدرها فى ديوان الشاعر الوطنى الغيور الأستاذ فخرى أبو السعود فى صفحات ٧٧، ٧٨، ٧٩ وقد صدرها بمقدمة رائعة عن ذكريات المعركة الوطنية التى انتهت باحتلال البلاد غدرا وخيانة، قال فيها:

«وأقل ما فى ذكريات الثورة العرابية، أنها كانت أول مظهر صحيح للقومية المصرية التى تنبهت فى العصر الحديث وأن معركة التل كانت أول معركة قام بها جيش مصرى صميم، بالدفاع عن أرض مصر، وأن المصريين كانوا ينازلون فيها أكبر قوة استعمارية عرفها التاريخ، وأن الإنجليز لم يطمئنوا إلى منازلة المصريين ولم يحرزوا عليهم النصر إلا بعد أن استعانوا بكل حيلة، ومما جاء فى هذه القصيدة النادرة:

ولم أر يوم التل عــارا وســبــة
ولــم أره إلا أغــــر ممجــــدا
أنخــجل أن قـمنا نذود عن الحــمى
ويسـحب أذيال الفـخار من اعـتدى
تدفق من عــبــر المحــيط مــهــددا
فــمــا حــفلت آباؤنا من تـهــددا
وســاق على الأحــرار بالتل ســفلة
أتى بهـــمــو من كل فج وأعــبــدا
خـمـيس يسـيـر العـار فى خطواته
ويتبـعه الأوغاد فى حـيثمـا اهتدى
كــفــتــه خــيــانات اللئـام عــدوه
ومــا بث من جند الفـسـاد وأرصــدا
ســلام على من قــد تـصلوا بنارها
وخــاضــوا لظاها فــائرا مــتــوقــدا
ســلام على (قــيل) تولى زمــامــهــا
أعف الورى قـصــدا وأنقــاهمــوا يدا
جـــريرتـه أن رام مـــصـــر عـــزيزة
وشــاء لـهــا أن تســتــقل وتســعــدا

ورام لها من طغمة الترك معتقا
وبعدا لعهد الترك أشأم أنكدا
ستذكره مصر الفتية ما ابتغت
لدى الحق عهدا أو لدى المجد موعدا

وسنكشف عن بعض هذه الأراجيف التى سيقت كذبا ونفاقا لاتهام البطل العظيم، وأولها أن الرجل كان جاهلا لا يعرف أساليب السياسة، ولا شأن له بقيادة مصر، وهى تهمة كاذبة لأن أحمد عرابى قد حفظ القرآن فى قريته، ثم التحق بالأزهر الشريف أربع سنوات، وكان والده من أعيان الإقليم فرأى رغبته فى الالتحاق بالجيش، فلم يمانع وظهرت كفاءته من صغره، فرقى إلى رتبة ملازم ثان بعد سنتين ثم إلى رتبة ملازم أول فى السنة نفسها، ولم يمر عام حتى وصل إلى رتبة قائمقام، وكان أول مصرى يصل إلى هذه الرتبة، ودرس القوانين العسكرية التى أهلته إلى هذه الرتبة، وكان اختلاطه برؤساء الجيش وهم من مرتزقة الأتراك والشراكسة دافعاً لغيرته الشديدة على أبناء وطنه إذ رأى فيهم التغطرس والاستعلاء على المصريين ما أزعج خاطره، وصمم على الدفاع عن حقوق الكثرة من العسكر فى الحرية والكرامة أمام من ينظرون إليهم من الغرباء كأنهم خدم وأتباع وكان من

حظه أن اختاره سعيد باشا والى مصر ياورا له فى زيارته للمدينة المنورة، وقد تقرب منه، ومنحه كتاب (تاريخ نابليون) ليقرأه فألهمه هذا الكتاب مبادئ عن الحرية السياسية، وحاجة البلاد إلى دستور تسير على هديه، وقد اعترف أن سعيد باشا كان يميل إلى المصريين ويعمل على ترقيتهم جنوداً وشعبا، ثم جاء إسماعيل فانقلب الوضع وأسلم الزمام إلى الشراكسة والأتراك، وحين قامت بوادر الثورة العرابية، وتولى قيادتها أحمد عرابى كانت خطبه وأحاديثه موضع إعجاب السامعين، وتناقلتها الصحف، وحفظها التلاميذ فهل كان هذا الذى رأس الصفوة من الثائرين وأسلمت له البلاد قيادتها وفيها العلماء وأرباب الأقلام وذوو الفكر الصحيح، هل كان هذا الزعيم جاهلاً لا يعرف أساليب السياسة، أما أنه كما قال الشاعر:

والناس من يلق خيرا قائلون له
ما يشتهى ولأم المخطئ الهبل

والأستاذ الكبير عبدالرحمن الرافعى على قسوته فى الحكم على عرابى عند حديثه عن السبب فى إخفاق الثورة العرابية، فإن روح الإنصاف لم تفارقه فى حديثه عن أسباب قيام الثورة قد قال: (ولا جدال فى أن ظهور أحمد عرابى كان

في مقدمة الأسباب، فهو الذى بث فى نفوس الضباط روح التضامن والاتحاد للمطالبة بحقوقهم المهضومة، وتقدم الصفوف لعرض مطالبهم جهارا على ولاة الأمور وكانت هذه المطالب فاتحة الثورة، فهذه الجرأة ذات أثر كبير فى ظهور الثورة، ولو لم يظهر عرابى ولو لم تكن هذه الشخصية التى اجتذبت إليها صفوف الضباط، وبثت فيهم روح التضامن والإقدام لكان محتملا ألا تظهر الثورة العرابية أو تظهر فى زمن آخر، وفى ظروف أخرى غير التى ظهرت فيها).

وليس من شأننا أن نتابع أدوار الثورة العرابية، فإن الكتب الأخيرة التى ظهرت بعد قيام ثورة يوليو سنة ١٩٥٢م قد وفت المقام حقه، وكلها دون استثناء قد اعتمدت على الباحث المنصف الأستاذ محمود الخفيف صاحب الفضل الأول فى تجليته مرآة الثورة وإعطائها ما تستحق من التقدير، ولكننا هنا نريد أن نرد على الذين جعلوا عرابياً السبب الأول فى إخفاق الثورة، وعدوا من أكبر أخطائه عدم سد القناة استنادا للوعد الكاذب الذى أكده «دليسبس» إذ أرسل إلى عرابى تلغرافاً يقول فيه: «لا تعمل عملا يعوق سير القناة، فأنا هنا، ولا تخش شيئا من هذه الناحية إذ لا ينزل جندى إنجليزى واحد إلا ويصحبه جندى فرنسى وأنا المسئول

عن ذلك».

يقول الأستاذ محمود الخفيف: «أما أن ردم القناة كان من السهولة كما يصوره خصوم عرابى فى نعيهم عليه أنه لم يفعله فى الحال فذلك ما ينفيه الواقع، وذلك أن الإنجليز ما كادوا يفرغون من ضرب الإسكندرية حتى اتجهوا إلى حماية القناة، وكان على عرابى أن ينشئ خطوط كفر الدوار ليصد الإنجليز الذين دخلوا الاسكندرية فعلا فإذا ذكرنا أنهم فرغوا من ضرب الإسكندرية فى اليوم الثانى عشر من يوليو، وأنهم سيطروا على مدخلى القناة قبل نهاية هذا الشهر، واحتلوا السويس فى ثانى يوم من الشهر التالى، وأن جانبا من أسطولهم كان يستطيع الانتقال فوراً إلى بورسعيد إذا ذكرنا ذلك كله أدركنا مقدار ما كان يواجه عرابيا ورجاله من صعوبة إذا أقدموا على عمل جبار كردم قناة السويس، وليس معنى ذلك أنه كان يستحيل عليهم العمل، وإلا سقط عنهم اللوم وإنما الأمر كان صعبا».

وأقول: لعل هذه العوائق هى التى جعلت عرابيا يتردد فى ردم القناة! ولنفرض جدلا إن رأيه فى هذه المسألة كان غير صائب، فلكل قائد أخطاؤه التى لا يلام عليها لأنه بشر يخطئ ويصيب أما أن نجعل ذلك آية الجهل ودليل الرعونة

فهو الشطط البعيد.

وأما الظروف التي أدت الى الهزيمة، فقد كانت أكبر من أن يدفعها عرابى وزملاؤه، وقد احيطوا بتآمر شاذ على الثورة فى الداخل والخارج، وأشد هذا التآمر ما كان من المنافقين الذين يظهرون المودة ويبطنون المكيدة، فيلمون بأسرار الجيش على أنهم منه وإليه، ثم يذهبون بها إلى الأعداء يوما بيوم، وهذاهو الإجرام بعينه، وبمراجعة الملابسات القوية التي أدت الى هذه العاقبة الوخيمة نجد فى مقدمتها:

- موقف الخديوى توفيق، إذ كان فى أعماقه يؤمن بالدكتاتورية التى تجعله صاحب الأمر والنهى فى مصر دون مجلس شورى، أو دستور قانونى يحدد سلطةالحاكم، ومسئولية الوزارة أمام مجلس الشورى، ثم هو لايثق إلا فى خاصته من الأتراك والشراكسة، ويعد المصريين رعايا ليس لها غير الخضوع والاستسلام، وقد قال فى أول صدام له مع الثورة فى يوم عابدين، بعد أن صاح بالجنود:

«أغمدوا سيوفكم» وعودوا إلى أماكنكم،

فلم يفعلوا، فاتجه إلى عرابى سائلا: ما أسباب حضورك بالجيش هنا؟.

فقال عرابى : جئنا يا مولاى لنعرض عليك طلبات الجيش والأمة ، وكلها طلبات عادلة ،

فقال : ما هذه الطلبات ؟ .

فرد عليه عرابى هى إسقاط الوزارة المستبدة ، وتشكيل مجلس نواب على النسق الأوروبى ، وإبلاغ الجيش الى العدد المعين فى الفرمانات السلطانية والتصديق على القوانين العسكرية التى أمرتم بوضعها .

فقال توفيق : كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها ، وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى وأجدادى ، وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا .

فرد عرابى : لقد خلقنا الله أحرارا ، ولم يخلقنا تراثا وعقاراً ، فهو الله الذى لا إله إلا هو إننا لن نورث ولن نستعبد بعد اليوم !

فى هذا الحوار خلاصة ما يعتقده توفيق فى نفسه ، وفى ما يجب أن يسير عليه حكمه ، وهو مع هذا الاعتداد بمركزه أمام عرابى كان فى غاية التخاذل والخنوع أمام ممثلى الدول الأجنبية حريصا على تنفيذ رغباتهم مهما سلبت منه كل اختيار ، وقد استغلت انجلترا وفرنسا ضعفه فأشارتا عليه بما

أشعل اللهيب، ثم أعلن انحيازه النهائى للإنجليز فى معارك الإسكندرية وكفر الدوار والتل الكبير بما يصمه بالخيانة دون تردد أو تبرير.

ـ أما الأمر الثانى من هذه الأسباب، فموقف الدولة العثمانية التى إنحازت إلى الميثاق الاستعمارى الذى وضعته انجلترا وفرنسا وسموه ميثاق النزاهة وقد خطب سفير انجلترا فى المؤتمر قائلا: «إن الخديوى لا حول له ولا قوة، وإن على الدول المجتمعة أن تأخذ الثورة المصرية بالشدة فتستأصل شأفتها لإعادة حكومة منظمة تطيع الحضرة السلطانية «وكلمة» «الحضرة السلطانية» كانت طمأنة وهمية لتركيا حيث قامت انجلترا بضرب الإسكندرية أثناء انعقاد المؤتمر، ولم تبد الأستانة أى اعتراض، ثم تمت الخيانة بإصدار الباب العالى منشورا يعلن خيانة عرابى، وعده من الثائرين عصاة خارجين عن طاعة أولى الأمر فى الأستانة ومصر على السواء، إن الدولة العثمانية التى استجابت لرغبات انجلترا كانت تستجير من الرمضاء بالنار! وقد جعلتها انجلترا ألعوبة فى يدها تسيرها كما أرادت.

وفهم المصريون ذلك فاجتمعت الأمة أعيانها وعلماؤها وذوو الرأى فيها مستنكرين رأى السلطان فى الثورة وبمعنى

آخـر، أنهـم لا يعتـرفـون له بأى سلطان ! لوقـوفـه فى صف الأعـداء، لقـد نشـرت الدولة العثمانية إعلان عصيان عرابى والحرب قائمة، نشرته فى جريدة الجوائب التى كانت تصدر بالأستانة وقام سلطان باشا بتوزيع آلاف النسخ منه على الأهالى والأعيان ! فكان مصيبة أخرى !

وحديثنا عن سلطان باشا يجرنا إلى الكلام عن زملائه الخونة الذين كانوا أحذية فى أقدام الإنجليز، وكان هو فى مقدمتهم إذ ندبه الخديوى لمساعدة الجيش الإنجليزى الزاحف إلى كفر الدوار والتل الكبير، فبذل كل وسع يستطيعه لجذب صغار النفوس إلى الخديوى، وعلم أن مشايخ العرب إذ ذاك لا يفكرون إلا فى مصالحهم الخاصة، ولا يهمهم استقلال مصر فكاتبهم ليكونوا جواسيس الإنجليز ووزع عليهم الرشاوى المالية التى حملها من القاهرة، وقد عرف ـ كما يقول الأستاذ الإمام ـ أن توزيع الرشوة باسم الإنجليز يضر ولا ينفع، فجعل يقول إنها مكافأة من السلطان التركى، ومساعدة من ولى النعم توفيق، ثم استطاع أن يجذب رئيس عرب الطحاوية إلى معسكره مع فريق من البدو النازلين بالفيوم، فجعلهم يحملون المنشورات السرية الداعية لتأييد الخديوى ومساعدة الإنجليز ويفرقونها على رؤساء القبائل لينضم العرب جميعاً

الى أعداء البلاد.

ويظهر أن الإنجليز لم يكونوا على ثقة تامة بالبدو، فاختاروا الجاسوس، «بالمر» وهو مستشرق يجيد العربية والفارسية ليكون حامل الجنيهات الذهبية ويشرف على توزيعها لتكون أقرب وسيلة إلي استمالة الضعفاء وقد نجح هذا الوغد فى مسعاه الدنئ وثبت انه حجز لنفسه من هذه الأموال ما راق له، فكان خائنا للمصريين والإنجليز معا، ومن دهائه أنه كان يجتمع بالبدو، ويسمعهم الشعر العربى ويروى لهم سير الأبطال من بدو الجزيرة العربية ليفهمهم أنه منهم، وقد سمى نفسه «عبدالله» وكان ذا نشاط واسع لا يمل إذ أخذ ينتقل بين السويس والفيوم، وقد لبس الملابس البدوية، وادعى انه تاجر إبل وكان عرب سينا من أقوى مصدقيه، ثم شموا رائحة المال فى حقيبته فهجموا عليه ليلاً وأغتالوه وقد لقى حتفه بعد أن أدى مهمة الجاسوسية فى حقارة وابتزاز وأكد الصلة الوثيقة بين شيخين من شيوخ البدو هما مسعود الطحاوى ومحمد البقلى فجمعوا رعاعهم ليكونوا هداة للجيش الإنجليزى فى زحفه الأثيم، ولولاهم لتعرقل سيره أمدا غير قصير.

أما ياور الخديوى عثمان رفعت فقد أخذ يتصل بالضباط

الشراكسة الذين أبعدهم عرابى عن الجيش فأغراهم بالانضمام إلى جيش الاحتلال واعدا إياهم بالعودة إلى قديم نفوذهم وسرعان ما استجابوا إليه وأصبحوا مطايا حقيرة تحت أقدام المحتلين، وإذن فلم تكن قوة الإنجليز وحدها سبب الهزيمة، بل أضيفت إليها قوى الخيانة والرشوة والتزييف، واستغلال منشور السلطان التركى المجاهر بعصيان العرابيين، وخروجهم على الحاكم الشرعى للبلاد!

إن هزيمة عرابى مع هذه الظروف السيئة لم تكن عاراً بالنسبة له، فقد هزم أبطال الدفاع كثيرا فى مواقع شتى بالشرق والغرب، ونابليون نفسه الذى ضيع جند فرنسا فى تحقيق رغباته فى الإمبراطورية الواسعة، لم يعير بالهزيمة بل عد بطلا، ومازالت الكتب فى الشرق والغرب تسجل أمجاده الأولى، وهزائمه الأخيرة، دون أن تتهمه بالجهل والشعوذة والفرار، كما ادعى ذلك الآكلون من كل مائدة متى أبيح الطعام!

لقد كان عرابى زعيماً مخلصاً، وحسبه أنه الزعيم الأول الذى واجه القوة الغاشمة فى شمم وإباء، وأنه الفجر الصادق الذي تلاه الصبح المبين.

الفهـــرس

● دعبل الخزاعى
شاعر ثائر ذو رأى ٣
● الإفشين
بطل باسل مـضطهـد ٢٧
● أبو المسك كافور
يهجوه المتنبى دون ذنب ٣٩
● يعقوب بن كلس
أول مـن نـظـم دروس الأزهـر ٥١
● أبو العلاء.. ومعارضة القرآن ٦٥
● مصـرع شاعـر بطل ٧٩
● من صفحات التاريخ
إنصاف السهر وردى الشهيـد ٩١
● إنصاف بطل باسل
محمد كريم ١٠٥
● أحمد خان
مصلح كبيـر مفتـرى عليـه ١٢٣
● على مبارك
دوره الإصلاحى وموقفه من الثورة العـرابيـة ١٣٧
● أحمد عرابى
رأس يهاجمـه الأذناب ١٥٣

AL AZHAR
MAGAZINE



المتن ٧٠ جم مستورد
الغلاف ١٥٠ جم كوشيه
شركة الإعلانات الشرقية دار الجمهورية للصحافة